أعلام الفقهاء والمحدثين

سفيان بن عيينة الهلالي

محدّث الحرم المكّي

(١٠٧ - ١٩٨هـ / ٧٢٥ - ٨١٣م)

دكتور عصام محمّد الحاج علي
دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي
أستاذ مساعد بكليّة الآداب في الجامعة اللبنانيّة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣-٨٦٨٠٥١-٦٠٢١٣٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣ - ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

إهـــداء

إلى أُمّي الطّاهرة؛ الغالية على قلبي، التي غابت في يـوم عرفـات(*)، وغاب معهـا العطف والحنـان وبهجة الأعياد.

* * *

إلى الإمام سفيان بن عُيينة تكريماً لِذكراه الخالدة في ضمير الأمة.

* * *

إلى العروس الجنوبية، التي استشهدت قبـل أن ترتدي ثوب الزّفاف!!.

مع أجمل الذكريات
د. عصام

(*) ٩ ذو الحجة ١٣١٤/٣٠ أيار ١٩٩٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

خطّتي في دراسة أعلام الفقهاء والمحدّثين؛ تهدف إلى تغطية معظم أقطار العالم الإسلامي، ولمّا كنت قد تناولت بالبحث شخصية الإمام عبد الله بن المبارك عن منطقة خُراسان، والإمام سفيان الثّوري عن مدينة الكوفة، والإمام شُعبة بن الحجّاج عن مدينة البصرة؛ وجدت من المناسب أن أدرس شخصية الإمام سفيان بن عُيينة كنموذج عن مكّة المكرّمة؛ باعتباره من أبرز رجالات الحديث المُخَضرَمين، الذين عايشوا، في تلك المنطقة، دولتي بني أُميّة وبني العباس.

بالعودة إلى بلاد الحجاز، نجد أن مكّة كانت خلال هذه الحقبات التاريخية؛ تغصّ بجمهرة كبيرة من مُهاجِرِي الآفاق، الذين هرعوا إلى مهبط دينهم ينشدون الاطمئنان بعيداً عن القلاقل والفتن التي عصفت ببلادهم. فكثر سوادهم، وامتلأت برجال العلم منهم حلقات الدروس في المسجد الحرام.

وإذا ما تتبّعنا تلك الحلقات؛ أول ما تتراءى لنا مجالس عبد الله بن عباس زمن الأمويين الذي أصبح صاحب مدرسة خاصة به، ثم أنتجت مدرسته فيما أنتجت: سعيد بن جبير الكوفي وطاوس بن كيسان اليماني، وسليمان بن يسار، ومجاهد بن جبر المخزومي، وعطاء بن أبي رباح المكّي، وعمرو بن دينار الجُمحي وغيرهم[1].

وقد ظلّت هذه المدرسة تؤدّي دورها بأقوى ما تؤدّي المدارس العلمية، وتنتقل معارفها من طبقة إلى أخرى، ومن جيل إلى آخر حتى أنتجت سفيان بن عُيينة وغيره من أعلام المحدّثين.

ومن خلال هذه المعطيات؛ كان حماسنا شديداً لدراسة شخصية ابن عُيينة، يضاف إلى ذلك، ما كان يتمتع به الرجل من مركز مرموق بين أعلام المحدّثين، وما كان يلقاه أيضاً من تقدير واحترام؛ ولا سيما من قِبَل أئمة أصحاب المذاهب.

فكان الإمام مالك يهشّ لاستقباله ويتمنى أن يعانقه، كما جعله الإمام الشافعي في مصافّ مالك فقال: «مالك وسفيان القرينان»، وأما الإمام أحمد؛ فإنه لم يرَ مثله على الإطلاق.

---

(١) عن سيرة هؤلاء الأعلام؛ انظر: جلال الدين السيوطي، طبقات الحفّاظ، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٣/١٩٨٣، على التوالي: ص ٣٨، ٤١، ٤٢، ٨١، ٤٥. ٥٠

وأما بالنسبة لتقدير رجال الحكم لابن عيينة؛ فكلّ ذلك يتلخّص في موقف الخليفة هارون الرشيد منه، فكان يذكره بكل خير ويسمّيه «سيّد الناس»!.

من هنا تبرز أهمية هذه الدراسة التي أهملتها البحوث الحديثة بشكل كامل، حتى الكتابات القديمة التي تناولت ابن عُيينة؛ لم تتعرّض لتاريخه بشكل مفصّل، وإنما اكتفت بذكر نُتَف من أخباره، وردّدت بعضاً من حِكَمه وأقواله. لذا؛ كان لا بدّ من جمع تلك الأخبار، ولملمة تلك المواقف وتنسيقها في بحث متكامل يعرض المادة بطريقة علمية ومنهجية يمكّن القارىء من تكوين تصوّر واضح لهذه الشخصية.

وبطبيعة الحال، إن العمل في هذا البحث لا يخلو من المصاعب، خصوصاً وأن الغاية منه هي تسليط الأضواء على إمام فذّ بغية الكشف عن نشاطه العلمي، وتبيان جهوده إزاء علم الحديث، ومن ثم الخلوص إلى لحظ موقعه بين أعلام الفقهاء والمحدّثين، وكلّ ذلك في مادة خجولة لا تكاد تَفِي بالغرض.

في ظلّ هذه الظروف، كان من الطبيعي أن نقسم مادة البحث إلى محاور، آخذين بعين الاعتبار أهمية المحافظة على التوازن بين الفصول؛ حرصاً منّا على إخراج عمارة الدراسة بشكل مقبول وسليم.

وبناءً على ذلك، فقد تضمّنت هذه الدراسة؛ مقدمة وخمسة فصول، بالإضافة إلى خاتمة، وثَبْت بالمصادر والمراجع المعتمدة، وفهرس مفصّل لشتّى الموضوعات.

فالمقدمة؛ تناولت فيها دوافع اختيار هذا البحث وأهميته مع عرضٍ شامل للخطة المتّبعة.

وأما الفصل الأول؛ فقد خصّصته لدراسة «الأوضاع السياسية في مكة منذ عهد النبي ﷺ، وحتى نهاية الإمام سفيان بن عُيينة»، وكانت الغاية منه؛ هي الإحاطة الشاملة بالأحداث التاريخية التي شهدتها مكة؛ لنتبيّن من خلالها، المحيط العامّ الذي عاش فيه ابن عُيينة، ومدى انعكاس ذلك على أوضاعه العلمية والمعيشة، وبالتالي مدى تأثيرها في إنتاجه الفكري.

وركّزت في الفصل الثاني؛ على دراسة شخصية سفيان بن عُيينة بما في ذلك مولده ونشأته العلمية، ومن ثم عرضت إلى رحلاته وتنقلاته التي كانت أول الأمر، بسبب الوضع السياسي المضطرب، وثانياً، من أجل جمع الحديث النبوي الشريف من مصادره الموثوقة. ومن خلال هذه الجوانب برزت مكانة ابن عُيينة الفكرية والتي تجلّت بوضوح في مجالسه وحلقاته، التي كانت تغصّ بطلاب العلم، الذين كانوا يقصدونه من جميع الأقطار الإسلامية للاستفادة من علمه الغزير، ولا سيما فلسفته الرشيدة ومعرفة رأيه في علم الحديث.

وبيّنتُ في الفصل الثالث؛ مقدرة ابن عُيينة على حفظ الحديث وإتقانه، ثم أجريت مقارنة بينه وبين مُعاصِريه من الأئمة الأعلام، ومن خلالها يستطيع القارىء أن يحكم على المستوى العلمي الذي وصل إليه الرجل، الذي كَشَفَ عن مقدرة فذّة ولا سيما حينما عمد إلى تصنيف ناقِلِي الآثار، وأصدر أحكامه بخصوص العديد منهم، وهذه الجوانب مجتمعة كانت كافية لإجماع الأئمة على توثيقه ومنحه لقب «إمام القوم» على مدار أربعين سنة.

وفي الفصل الرابع؛ تطرّقتُ إلى نشاطه الديني، وما تضمنه من عبادة وتقوى وزهد وورع، وهذه المزايا جعلته وجهاً لوجه أمام قضية القرآن الكريم، التي كان معنيّاً بها عنايةً كبيرةً، أكان ذلك من حيث التصدّي للبِدَع التي قيلت فيه أو من حيث دعوة الناس إلى الاهتمام به، وبالتالي عنايته بتلاوته وشرح آياته وتفسير غوامضه، وبذلك أدّى دوره كاملاً من حيث تقريب القرآن للناس وتقريب الناس إليه.

وأما الفصل الخامس فقد عالجت فيه «نشاط ابن عُيينة الاجتماعي السياسي» ومن المؤسف حقّاً أن دوره الاجتماعي لم يكن واضحاً من خلال المعطيات التي حصلنا عليها، وإنما حاولت استخلاص ذلك من خلال أقواله ونصائحه التي كان يُتحِف بها أبناء مجتمعه. وأما دوره السياسي، وإن كان مختصراً، فإنه يعطي صورة واقعية عن علاقته بحكّام الأمّة، تلك العلاقة النبيلة التي كانت تهدف

إلى إصلاح كبار القوم؛ عن طريق إسداء النصيحة الخالصة لوجه الله عزّ وجل.

وبعد تسعة عقود من المعاناة، جاءت نهاية سفيان الذي أعطى كلّ ما لديه، أعطى العلم، والإخلاص للحديث الشريف، والتفاني في العبادة ومحبة كتاب الله، وهذه المزايا جميعها جعلته محطّ أنظار معاصِريه، الذين أصدروا أحكامهم فيه، فنال بفضل شهاداتهم: مركز السيادة، وتبوّأ بينهم مرتبة الشرف. فهو بشهادة بعضهم: «أحد الأحدين»، وبشهادة آخرين «ليس له نظير».

وأخيراً جاءت الخاتمة ملخّصة لِما توصّلت إليه الدراسة من نتائج واستنتاجات، ثم خلصت إلى إصدار الحكم العادل على ابن عُيينة بعد أن حدّدت موقعه بين أئمة الحديث، وفتحت آفاقاً جديدة أمام الدارسين والباحثين.

ومن المفيد أن نذكر، أن هذه الدراسة قد اعتمدت على العديد من المصادر التاريخية والأدبية، ولا أجد ضرورة لذكرها هنا؛ لأنني أودعتها مفصّلة في نهاية هذا البحث، ولكنها ساعدت بشكل أو بآخر في إغناء مختلف جوانب هذا العمل، وأمدّته بمعلومات كان لا بدّ منها، كما ساهمت في إلقاء الضوء على جوهر شخصية محدّث الحرم المكّي الإمام سفيان بن عُيينة، الذي كانت له نشاطات جمّة على أكثر من صعيد.

وفي الختام؛ إنني أضع بين يـدي القارىء الكـريم هذه الدراسة المتواضعة، آملاً أن أكون قد تمكّنت بها من معالجة جوانب بارزة من شخصية سفيان بن عُيينة الهلالي، كما أرجو أن تكون هذه الدراسة جديرة باحتلال مكانتها في المكتبة العربية.

ويبقى الله وحده وليّ التوفيق...

دكتور عصام محمد الحاجّ علي
النبطية ـ جنوب لبنان
٢٧ شعبان ١٤١٣
١٨ شباط ١٩٩٣

الفصل الأول

الأوضاع السياسية في مكة منذ ظهور الإسلام وحتى وفاة الإمام سفيان بن عُيينـــة

وُلِدَ سفيان بن عُيينة بالكـــوفة سـنة ١٠٧ هـ/٧٢٥ م في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥/ ٧٢٤ - ٧٤٣)، ثم انتقل إلى مكّة وهو في العقد الثاني من العمر، فسكنها من دون أن ينسى مسقط رأسه، فظلّ يتردّد على الكوفة إلى أن استقرّ نهائياً في مكّة في حدود العام ١٦٣/ ٧٧٩ - ٨٠. وقد قارب الستّين من العمر، فبقي هناك حتى وافته المنيّة سنة ١٩٨/ ٨١٣ في خلافة عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨/ ٨١٣ - ٨٣٣) عن عمر يُناهِز التسعين سنة. وبهذا يكون ابن عُيينة قد عاصر خمسة خلفاء من العهد الأموي هم:

هشـام بن عبد الملك، والـوليد بن يـزيد بن عبـد الملك، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد.

وعاصر أيضاً سبعة خلفاء من العصر العباسي هم:

أبو العباس السفّاح، وأبو جعفر المنصور، ومحمد المهدي بن المنصـور، وموسى الهـادي بن المهـدي، وهـارون الـرشيـد بن

المهدي، ومحمد الأمين بن الرشيد، وعبد الله المأمون بن الرشيد.

وبما أننا تناولنا الأوضاع السياسية في مدينة الكوفة خلال دراسة شخصية الإمام سفيان بن سعيد الثّوري (ت ١٦١/٧٧٨)[١]، فمن المناسب أن نخصّص هذه الدراسة للبحث في الأوضاع السياسية في مكة المكرّمة باعتبارها الموطن الثاني للإمام سفيان بن عُيينة.

والواقع؛ أن تاريخ مكة يتزامن مع وضع إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام اللّبنة الأولى في بنية الكعبة المباركة[٢]، ولكن هذا لا يعني أننا سوف نتناول تاريخ المدينة منذ بنائها وحتى نهاية سفيان بن عُيينة، وإنما يكفينا أن نبدأ بذلك منذ أن دخلت مكة التاريخ من بابه الواسع، أي مع بداية التاريخ الإسلامي، وتزعّم النبي محمد بن عبد الله (ﷺ) للعرب، وقيادتهم على الصعيدين الديني والسياسي.

---

(١) عن مدينة الكوفة؛ انظر: كتابنا الإمام سفيان بن سعيد الثوري سيّد الحفّاظ، ص ١٢، وما بعدها، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٢/١٩٩٢.

(٢) ﴿ وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيلُ ﴾ سورة البقرة، آية ١٢٨؛ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٠، مصر: مط. مصطفى محمد، د.ت. أبو الوليد محمد الأزرقي، أخبار مكة شرّفها الله، وما جاء فيها من الآثار، تحقيق وستنفلد، جـ ١، ص ٢٤ وما بعدها، ط. ليبزغ، ١٨٥٨. عبد الله بن مسلم بن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢١، ٣١١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧.

١ ـ الحالة السياسية في مكة على عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين:

لا ريب؛ أن ظهور محمد (ﷺ) كان نقطة تحوّل في تاريخ مكة، فبعد أن دخلها سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م دخول الفاتحين[١]، عمل على رأب الصّدع، وجمع شمل العرب، فقرّب إليه بني أُميّة[٢]، وعفا عن سائر القرشيين[٣]، ثم عقد العزم على متابعة الجهاد في أرض الحجاز[٤]، بعد أن استعمل على مكة أول عامل له وهو «عَتّاب بن أُسيد»[٥].

ولمّا انتهى الرسول(ﷺ)من توجيه السرايا والكتائب إلى القبائل

---

(١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق (السقا والأبياري وشبلي)، جـ ٤، ص ٤٩، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت. محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد مطيع الحافظ، ص ٢٠، ط ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦/١٤٠٦.

(٢) أحمد بن واضح المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٥٩، بيروت: دار صادر، د.ت.

(٣) عزّ الدين علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٢٥٢، بيروت: دار صادر ١٩٨٢/١٤٠٥.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٥) أحمد بن يحيىٰ البلاذري، فتوح البلدان، بعناية رضوان رضوان، ص ٥٣، بيروت: ١٩٧٨/١٣٩٨؛ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٢، ص ٤٥١، ط ١، مصر: مط. السعادة، ١٣٢٨ هـ.

والعشائر سيّر البعوث إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام[1]، وفي سنة ٦٣١/١٠ قرّر أن يؤدّي فريضة الحج، فكانت حجّة الوداع، وأهم ما حدث فيها أنه وقف يخطب في الناس وهو على راحِلته خطبته التاريخية المعروفة بخطبة الوداع، وفيها قرّر قواعد الإسلام، وهدم قواعد الشرك، ووضع أمور الجاهلية في الدّرك الأسفل، وأبطل الرِبا وحرّم المحرّمات من الدماء والأموال والأعراض، وأوصى أمّته خيراً بالثقلين وهما: كتاب الله وعترة أهل بيته[2].

وبعد ذلك بشهرين ونيّف؛ انتقل رسول الله (ﷺ) إلى جوار ربّه تاركاً قيادة الدولة العربية للخلفاء الراشدين. فأول مَن تولّاها منهم أبو بكر الصدّيق (١١ - ١٣ هـ/ ٦٣٢ - ٦٣٤ م) الذي أبقى على عتاب بن أسيد في إمارة مكة فتولّى أمرها طيلة عهد أبي بكر[3] فأحسن السّيرة بين الرعيّة وحافظ على حقوق الناس.

وبعد أبي بكر قام بأمر المسلمين الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ/ ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، فأبقى أمر مكة بيد عتّاب بن أسيد

---

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٦٩ - ٧٨.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ ٤، ص ٢٥٠ وما بعدها؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ١٠٩ - ١١٢؛ محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠. وعترة النبي، هم بنو عبد المطلب وقيل أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعليّ وأولاده. انظر: محيط المحيط، لبطرس البستاني (مادة عتر)، بيروت: مكتبة لبنان، ط ١٩٨٣.

(٣) الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٤٢٠.

بحسب رواية الطبري[1] ثم وَلِيَ بعده المحرز بن حارثة القرشي، ثم وَلِيَها قنفذ بن عمير بن جدعان التميمي[2]، ثم صرفه واستعمل نافع بن عبد الحارث الخزاعي[3]، ثم أحمد بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، ثم طارق بن المريفع الكناني[4]، ثم الحارث بن عبد المطّلب الهاشمي[5]. وتوفي عمر وعلى مكة نافع بن الحارث[6]. ولعلّها ولايته الثانية على عهد عمر.

ولمّا تولّى عثمان بن عفّان خلافة المسلمين (٢٤ ـ ٣٥ هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦ م)، كان كثير العزل لوُلاته في مكّة، فقد تنقلت الإمارة فيها لعهده بين علي بن عديّ بن ربيعة من بني عبد شمس، وخالد بن العاص المخزومي، والحارث بن نوفل من بني عبد المطّلب، وعبد الله بن خالد بن أسيد بن عبد شمس،

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك بعناية نخبة من العلماء، جـ ٣، ص ٩٥، ١١٦، ١٤٤، ١٨٩. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت؛ الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٤٤٩؛ الإصابة، جـ ٢، ص ٤٥١.

(٢) ابن حجر، الإصابة، جـ ٣، ص ٢٤١؛ تقي الدين محمد بن احمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جـ ٢، ص ١٦٤، القاهرة: ١٩٥٦.

(٣) ذكره اليعقوبي في تاريخه، جـ ٢، ص ١٦١؛ والطبري، جـ٣، ص ٣٠٣؛ وابن الأثير، في الكامل، جـ ٣، ص ٧٧.

(٤) الإصابة، جـ ٢، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٥) شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٦٤.

(٦) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ١٦١؛ الطبري، جـ ٣، ص ٣٠٣.

وعبد الله بن عامر الحضرمي، ونافع بن عبد الحارث الخزاعي[1].

وقد حجّ عثمان بالناس أيامه كلها إلاّ السنة الأولى من حكمه وهي سنة ٦٤٤/٢٤، فإنه حجّ بالناس عبد الرحمن بن عوف، وكذلك السنة التي قتل فيها. فإنه حجّ بالناس عبد الله بن عباس وهي سنة ٦٥٦/٣٥[2].

ثم تولّى الخلافة عليّ بن أبي طالب (٣٥ - ٤٠ هـ/ ٦٥٦ - ٦٦١ م) بعد أن بايعه أعيان مكة وساداتها[3]، ولعلّ أهم حدث شهدته مكة في مستهلّ حكم علي، هو مطالبة عائشة، زوج الرسول، بدم عثمان وخطبتها في حجر إسماعيل (ع) مُحَرِّضة الناس على الأخذ بثأره، فاستجاب لها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام، وعبد الله بن عامر الحضرمي، وكان عامل عثمان على مكة، كما انضمّ إليها الأمويون من أهل مكة والمدينة[4].

ولمّا اكتملت الجُموع نادى مُنادياً بالخروج، فخرجوا في ثلاثة آلاف رجل؛ منهم عائشة محمولة في هودجها على جمل ما طلبتْ عليه أحداً إلاّ أدركته، ولا طلبها أحد وهي عليه إلاّ فاتته[5].

---

(١) شفاء الغرام، جـ٢، ص ١٦٥. توفي عثمان وعلى مكة عبد الله بن عامر الحضرمي. اليعقوبي، جـ ٢، ص ١٧٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ١٧٦.

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ٤٨، ط ١، القاهرة: ١٩٠٩/١٣٢٧؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ١٧٨.

(٤) الكامل في التاريخ، جـ٣، ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

وبعد أن ساد التفاهم بين طرفي النزاع في أول الأمر، فإن الحرب عادت لتشتعل من جديد، وكانت المعركة الفاصلة لصالح علي؛ بعد أن خسر المتحاربون قرابة العشرين ألفاً، وكان من بين القتلى طلحة والزبير، وأما عائشة فقد رجعت إلى مكة لتأدية الحجّ بعد أن شيّعها عليّ وبنيه[1].

ولمّا استتبّ الأمر لعليّ؛ عهد بإمارة مكّة إلى أبي قتادة الأنصاري[2]، ثم عزله وولّاها قُثَم بن العباس[3] وهو من رجالات قريش الهاشميين، كان قد أخلص العمل لعليّ في مكة، وأحسن في سيرته مع جيران بيت الله، وبذل كثيراً في سبيل الإصلاح. ولم يتّفق لعليّ أن يحجّ بالناس في أثناء عهد خلافته لاشتغاله بالحروب؛ فحجّ بالناس سنة ٣٦/٦٥٧ وسنة ٣٧/٦٥٨ عبد الله بن عباس[4]، وحجّ بهم في سنة ٣٨/٦٥٨ قثم بن العباس[5].

وفي السنة التالية ٣٩/٦٥٩ وجّه معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي في ثلاثة آلاف فارس إلى مكة ليُقيم للناس الحج ويأخذ له البيعة بمكة وينفي عنها عامل عليّ، فلما علم قُثم بن عباس بذلك، خطب أهل مكة ودعاهم إلى حرب الشاميين، ولكن الله أطفأ النائرة

(١) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ص ١٤٤ - ١٥٢، القاهرة: ١٩٦٠؛ الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٢٤٣ - ٢٥٨.
(٢) شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٦٥.
(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص١٧٩؛ الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٣٩٨.
(٤) الطبري، جـ ٣، ص ٥٧١ وجـ ٤، ص ٦٩.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١٠٢.

وجمع أمر الأمة واعتزل الرجلان الصلاة بالناس والحجّ بهم، واختار الحجيج شيبة بن عثمان فصلّى بهم وحجّ بهم، فلما قضى الناس حجّهم رجع يزيد بمَن معه إلى الشام[1].

وبعد اغتيال عليّ سنة ٤٠/٦٦١[2] اختارت الأمة وَلده الحسن الذي سرعان ما تنازل بدوره لمعاوية بن أبي سفيان[3].

٢ ـ الأوضاع السياسية في مكة إبّان الحكم الأموي:

ما إن تسلّم معاوية الخلافة (٤١ ـ ٦٠/ ٦٦١ ـ ٦٨٠)؛ حتى نشط في بسط سلطانه على جميع الأمصار، الأمر الذي دفع بأنصاره في مكة والمدينة للانتقال بأسرهم إلى الشام. وقد أحسن معاوية وفادتهم، كما أحسن العناية بشؤون إمارة مكّة؛ فولّاها جماعة من كبار رجالات قريش، أشهرهم أخوه عُتْبَة بن أبي سفيان، وأحمد بن خالد بن هشام المخزومي، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وعبد الله بن خالد بن أسيد[4]، وخالد بن العاص بن هشام[5].

(١) الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٣٧٨.

(٢) الإمامة والسياسة، جـ ١، ص ١٥٠ وما بعدها؛ الأخبار الطوال، ص ٢١٦ ـ ٢١٨.

(٣) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥؛ محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٢٦.

(٤) شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٦٦.

(٥) الطبري، جـ ٤، ص ١٦١؛ الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٤٣٩.

وقد حجّ معاوية في خلافته بالناس عام ٤٤/٦٦٤، وحمل معه من الشام مِنبراً، فوضعه عند باب الكعبة، فكان أول مَن وضع المنبر في المسجد الحرام[١]، كما حجّ بالناس سنة ٥٠/٦٧٠[٢]. وأما بقية الأعوام فقد حجّ فيها أمراء مكة والمدينة.

مهما يكن من أمر، فإنه بعد فترة من الهدوء الذي شمل الحجاز على عهد معاوية، سرعان ما عادت الاضطرابات لتهدّد الأمن في البلاد، خصوصاً عندما لجأ المُغيرة بن شُعْبة[٣] إلى زرع بذور الفتنة بين الشاميين والحجازيين، وذلك بعد إقناعه لمعاوية بعقد البيعة بولاية العهد لابنه يزيد، فتحمّس معاوية للفكرة وكتب إلى الأمصار في شأنها، فعارضه أعيان الحجاز وعلى رأسهم الحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير[٤].

عندئذٍ صمّم معاوية على أخذ موافقتهم بالقوة، فشخص إلى المدينة ثم إلى مكة فهدّد سادة المسلمين ثم أخذ البيعة ليزيد من سائرِ الناس في سنة ٥٦/٦٧٦[٥]. وفي عام ٦٠/٦٨٠ مات معاوية تاركاً زِمام الأمر لخليفته يزيد (٦٠ - ٦٤/٦٨٠ - ٦٨٣)؛ الذي راح

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٢٣٩؛ الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٤٧١.
(٣) عن سيرته؛ انظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، جـ ٤، ص ٤٠٦ - ٤٠٧، ط. مصر: ١٢٨٥ هـ.
(٤) الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٥٠٣ وما بعدها. عن سيرة العبادلة، انظر: الإصابة، جـ ٢، على التوالي ص ٤٠٧، ٣٤٧، ٣٠٩.
(٥) الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٥٠٩ - ٥١١.

يطارد حسيناً وابن الزبير مرغماً إياهما على المبايعة، ولكنهما لم يستسلما للأمر الواقع بل تركا المدينة، وقصدا مكة للنظر في الحالة التي وصلت إليها دولة الرسول (ﷺ)[1].

ولما بلغ الحسين مكة اجتمع الناس عليه، وعقدوا مجالسهم حوله يستمعون إليه ويستنيرون برأيه. في هذه الأثناء توافدت إليه رُسُل الشيعة من الكوفة يحملون إليه كتباً من أعيانهم يطلبون إليه فيها أن يبادر بالذهاب إليهم؛ فانخدع بوعودهم فغادر مكة متوجّهاً إلى أرض كربلاء؛ حيث استشهد مع آل بيته وجملة من أصحابه مسطّرين أعظم ملحمة في تاريخ الإسلام[2]، وكانت الوقعة في يوم الاثنين لعشر خلون من المحرّم سنة ٦١/[3] ١٠ تشرين الأول ٦٨٠.

أما عن أوضاع مكة في هذه الفترة، فتذكر المصادر أنه في سنة ٦٠/ ٦٧٩ عمد يزيد بن معاوية إلى خلع الوليد بن عتبة بن أبي سفيان الذي كان على مكة غداة وفاة معاوية[4] وولّاها عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق[5] فظلّ يُدير شؤونها أقل من سنتين، ثم

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٤١.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق أحمد صقر، ص ٩٨ وما بعدها، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧/١٤٠٨؛ الأخبار الطوال، ص ٢٢٩، وما بعدها؛ الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٢٠ وما بعدها.
(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٤٥، يقول الأصفهاني في يوم الجمعة، مقاتل، ص ١١٤.
(٤) الطبري، جـ٤، ص ٢٣٧.
(٥) الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ١٤، ٤٣.

انتدبه يزيد إلى المدينة في سنة ٦١/٦٨٠ لتهدئة الوضع فيها بعد أن بلغته أخباراً تكشف عن استعدادات لقيام ثورة فيها، فتولّى الأمر بعده الوليد بن عُتْبَة؛ فأقام الحجّ سنة ٦١/٦٨٠[١] ثم عزله يزيد واستعمل عثمان بن محمد بن أبي سفيان في عام ٦٢/٦٨١[٢].

والجدير بالذكر؛ أنه بعد خروج الحسين بن علي إلى الكوفة، صَفَت مكة لعبد الله بن الزبير الذي ما أن وافاه خبر استشهاد الحسين (ع) حتى تنمّر لأخذ الخلافة، التي كان يعدّ لها العدّة منذ مقتل عثمان بن عفّان، وقد عبّر عن طموحاته السياسية بمشاركته في معركة الجمل إلى جانب حزب خالته عائشة. وبعد اغتيال عليّ آثر السلامة وفضّل السكوت على ما يجري من أحداث داخل الدولة الإسلامية، ثم بايع لمعاوية بعد أن ترضاه بالأموال وتلبية حوائجه[٣].

ولمّا وجد ابن الزبير أن الفرصة أصبحت مؤاتية؛ رفع صوته بالدعوة لنفسه، الأمر الذي أقلق بال عمرو بن سعيد بن العاص والي مكة ليزيد، فعمد إلى مراقبة تحرّكاته وملاحقة أتباعه[٤] ولكن جميع تلك الترتيبات لم تفتّ من عضد ابن الزبير ولم تهن من عزيمته، بل زادته تصميماً على تزعّم المسلمين.

---

(١) الطبري، جـ ٤، ص ٣٦٦؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٣.
(٢) الطبري، جـ ٤، ص ٣٦٨.
(٣) الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٢٥٠ وجـ ٤، ص ٩٨ وما بعدها، وص ١٠١؛ الإصابة، جـ ٢، ص ٣١١.
(٤) الطبري، جـ ٤، ص ٣٦٤.

عندئذٍ قرّر يزيد أن يقتصّ من ابن الزبير، فأرسل إلى عمرو بن سعيد أن يُجهز عليه، فأعدّ له جيشاً من ألفيّ مقاتل أمر عليه عمرو بن الزبير أخا عبد الله وأُنيس بن عمرو الأسلمي، غير أن عبد الله قاتلهم خارج مكة وهزمهم، وأسر أخاه عمراً في أواخر سنة ٦١/٦٨٠[1].

ولمّا شمل الناس جور يزيد وعمّاله، وعمّهم ظلمه، وما ظهر من فسقه، وخصوصاً بعد قتله الحسين بن علي؛ خلع أهل المدينة طاعته، لأنهم كانوا يرون في قتل الحسين انتهاكاً لحرمة الإسلام[2] لهذا كرهوا خلافته وانتقموا من بني أُمية الموجودين داخل المدينة فحصروهم وهدّدوهم بالاقتصاص منهم، فما كان من بني أُميّة إلاّ أن بعثوا خلسة برسول من قبلهم إلى يزيد يُعلمه حالهم[3]. فلما وصل الخبر إلى يزيد ندب إلى أهل المدينة وابن الزبير جيشاً بقيادة مسلم بن عُقْبة[4] وكان أحد جبابرة العرب. فتوجّه إلى المدينة في سنة ٦٨٢/٦٣، فحاصرها من جهة الحرّة، وهو موضع بظاهر المدينة، وأخذ يحرّض جنوده على القتال حتى فتحها، وقتل جماعة

(١) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ١٨٥ ـ ١٨٦؛ المعارف ص ١٢٩. (وقد مات عمرو تحت السِّياط) راجع: علي بن الحسين المسعودي؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ٣، ص ٧٦، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣.

(٢) مروج الذهب، جـ ٣، ص ٦٨.

(٣) الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١٠٣، ص ١١١ وما بعدها.

(٤) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١١٥، بيروت: دار صادر، د.ت.

(٥) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٠؛ طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٢٢٥.

من أعيانها، ثم أباح المدينة ثلاثة أيام[1] فقتل جنوده كثيراً من أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الذريّة، وانتهكوا الأعراض حتى ولدت الأبكار لا يُعرَف مَن أولدهنّ[2] ثم أجبر مسلم أهل المدينة على البيعة ليزيد على أنهم عبيد له بهدف إذلالهم، ومَن تلكّأ منهم كانت تُضرَب عنقه[3].

وبعد واقعة الحَرّة في المدينة صدرت أوامر يزيد إلى قائده مسلم بن عقبة بالتوجّه إلى مكة لقتال ابن الزبير، الذي بايعه أهل مكة لأنهم وجدوه أحقّ بالخلافة من يزيد فهو شيخ قد بلغ الستّين من عمره[4]، صوّامٌ قوّامٌ طويل الصلاة[5] على نقيض يزيد الذي كان صغير السنّ، يشرب الخمر، ويَدَع الصلاة[6] ويُوصَف «بالسكران»[7].

---

(١) الطبري، جـ ٤، ص ٣٧٠؛ الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١١٥، ١٧٧؛ الفخري، ص ١١٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٠؛ قال السيوطي: إنه «افتضّ فيها ألف عذراء»؛ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٢٠٩، ط ١، القاهرة: مط السعادة ١٣٧١/١٩٥٢.

(٣) الأخبار الطوال، ص ٢٦٥ وما بعدها؛ تاريخ اليعقوبي، ص ٢٥٠ - ٢٥١؛ الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١١٨ وما بعدها.

(٤) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥١؛ الإصابة، جـ ٢، ص ٣١١.

(٥) أسد الغابة، جـ ٣، ص ١٦٢.

(٦) الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١٠٣، ١٠٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٩.

(٧) الأخبار الطوال، ص ٢٦٥.

ولكن مسلم مات في الطريق تاركاً قيادة الجيش من بعده إلى الحُصين بن نُمير السكوني[١] الذي كان قائد شرطة عبيد الله بن زياد وقت خروج الحسين[٢]، فمضى الحُصين إلى مكة سنة ٦٨٣/٦٤، وأخذ في مناوشة ابن الزبير، وتطاول الحصين متحدّياً حُرمة الكعبة فنصب المنجنيق ورماها بالنفط والحجارة حتى احترقت كسوتها وتصدّعت حيطانها [٣].

واستمر القتال على أشدّه حتى وافت الأخبار بنعي يزيد، ففتر الحماس بين صفوف جند الشام الأمر الذي دفع بالحصين بن نمير للاجتماع بابن الزبير في ظاهر مكة وعرض عليه الرحيل معه إلى الشام، حتى يقطع الطريق على الراغبين في الخلافة من بني أميّة، ولكن ابن الزبير رفض أن يخرج من الحجاز، فعاد الحصين أدراجه إلى الشام التي بايعت لمعاوية بن يزيد (٦٨٣/٦٤)[٤].

وبعد أن رُفِعَ الحصار عن مكة عمل ابن الزبير على إعادة بناء الكعبة؛ فهدمها من أساسها[٥]، على الرغم من المعارضة الشديدة

(١) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥١.
(٢) الأخبار الطوال، ص ٢٤٣؛ الكامل في التاريخ؛ جـ ٤، ص ٤١.
(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ص ١٣٥ - ١٣٦؛ مروج الذهب، جـ ٣، ص ٧١؛ مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥١.
(٤) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٣، ٢٥٤، المعارف، ص ١٩٨؛ الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١٢٤، ١٢٩.
(٥) فتوح البلدان، ص ٥٩؛ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٦٠.

التي واجهته(1)، ثم باشر ببنائها على قواعدها الأولى التي ذكرها الرسول (ﷺ)(2): فوسّع الجوانب، وأقام العُمُد، وردّ الركن الأسود إلى موضعه بالداخل، وزخرفها بالفسيفساء والرخام، كما جعل لها بابين ليكون أحدهما للدخول والآخر للخروج وصفّحهما بالذهب وجعل مفاتيحهما من ذهب. فلما انتهى من بنائها خلقها بالمِسك والعنبر وكساها بالديباج(3).

وهكذا استتبّ الأمر لابن الزبير في مكة والمدينة ثم بايعه أهل العراق ومصر واليمن وخراسان كما بايعه أهل حمص وفلسطين وسائر بلاد الشام إلّا دمشق التي اجتمع رأي القبسية فيها بعد خلافة معاوية بن يزيد، على المبايعة لابن الزبير(4).

ولعلّ مروان بن الحكم، وهو شيخ قريش وسيد بني أُميّة آنذاك، قد عزم على الرحيل إلى مكة لمبايعة ابن الزبير وليأخذ منه أماناً لبني أُميّة في دمشق، غير أن فريقاً من بني أميّة أثنوه عن عزمه، وشجّعوه على أخذ الخلافة لنفسه، ثم بايعوه بالجابية، من أعمال

(1) أخبار مكة، ص ١٤١؛ مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥١.
(2) فتوح البلدان، ص ٥٩/ الأزرقي، ص ١٤٢ ـ ١٤٣، ١٤٤، ١٥٣.
(3) فتوح البلدان، المكان نفسه، اليعقوبي، جـ ١، ص ٢٦٠؛ مروج الذهب، جـ ٣، ص ٨٣؛ الكامل، جـ ٤، ص ٢٠٧؛ المقدمة، ص ٣٥٢.
(4) المعارف، ص ١٣١؛ تاريخ الخلفاء، ص ٢١٢؛ شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٥/١٤٠٥.

دمشق، سنة ٦٤/٦٨٣، وتوجّهوا جميعاً لقتال أنصار ابن الزبير من أهل الشام، فدارت معركة شرسة في مرج راهط شرقي دمشق؛ قتل فيها زعيم القيسية الضحّاك بن قيس الفهري وتفرّق أصحابه، وبذلك استقر الأمر لبني أمية في الشام، وتمّت البيعة فيه لمروان بن الحكم[١] (٦٤ - ٦٥/ ٦٨٣ - ٦٨٥).

وبعد فوز مروان بمنصب الخلافة راح يثير الاضطرابات ضدّ ابن الزبير، ففي سنة ٦٥/٦٨٥ أرسل نحو الحجاز، بعثاً كان فيه يوسف بن الحكم الثقفي وابنه الحجّاج بن يوسف[٢]، فتمكّنوا من دخول المدينة، ولكن جيوش ابن الزبير التي أُرسِلَت من البصرة والكوفة تمكّنت من هزيمتهم في الربذة، خارج المدينة، وهرب الحجّاج وأبوه؛ مما دعا إلى ابتهاج أهل المدينة[٣]، فعيّن عليها ابن الزبير أخاه مصعباً[٤].

ولكن لم تُتَحْ الفرصة لمروان للقضاء على حركة ابن الزبير؛ لموته المبكر بعد حكم قصير لم يدم أكثر من عشرة أشهر[٥]، فتولّى

---

(١) محمد بن سعد، كتاب الطبقات، جـ ٥، ص ٢٢٦، بيروت: دار صادر، د.ت؛ المعارف، ص ١٩٩، ٢٣٣؛ مروج الذهب، جـ ٣، ص ٨٥ - ٨٨؛ الكامل، جـ ٤، ص ١٥١.

(٢) عن سيرته؛ انظر: المعارف، ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق دي غواتن، جـ ٥، ص ١٥٠ - ١٥٣، القدس: ١٩٣٦.

(٤) الطبري، جـ ٤، ص ٤٨٤؛ الكامل، جـ ٤، ص ٢٠٦.

(٥) المعارف، ص ١٩٩.

الخلافة من بعده ابنه عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦/ ٦٨٥ - ٧٠٥) الذي أبلى بلاءً حسناً في تثبيت حكمه في معظم الأمصار خصوصاً في العراق التي كانت تدين لمصعب بن الزبير[١] ولكن بقيت أمامه مشكلة هامّة ممثّلة في شخص عبد الله بن الزبير الرابض في مكة، وهو يقاسمه لقب أمير المؤمنين[٢].

والواضح؛ أنه منذ أن تولّى عبد الملك، وهو يرسل نحو الحجاز سراياه، التي استولت على الأجزاء الشمالية منه، وتغلّب على عمّال ابن الزبير، وقاتلت بجوار المدينة؛ بحيث لم يبقَ نفوذ لابن الزبير إلّا في المدينة ومكّة[٣].

وبغية إنهاء هذا الوضع الشاذ حيث يوجد خليفتان في آنٍ واحد[٤] أنفذ عبد الملك إلى مكة حملة من الكوفة بقيادة الحجّاج بن يوسف[٥] الذي كان متلهفاً لقتال ابن الزبير - ربما لردّ اعتبار بني أميّة بعد هزيمتهم في الربذة - حتى أنه أقسم ألّا يقرب النساء ولا الطيب؛ إلّا إذا قتل ابن الزبير[٦]. فسار الحجّاج إلى

---

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص٢٦٥؛ طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٢٢٨؛ مروج الذهب، جـ ٣، ص ١٠٤ وما بعدها؛ الأخبار الطوال، ص ٣١١.

(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٦٧؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٣.

(٣) الكامل، جـ ٤، ص ٣٤٧.

(٤) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٢٣٥.

(٥) الطبري، جـ ٥، ص ٢٠ وما بعدها، الكامل، جـ ٤، ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٦) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٢٢٨ - ٢٢٩؛ الطبري، جـ ٥، ص ٢١؛ الكامل، جـ ٤، ص ٣٥٠.

الحجاز، وتمركز في الطائف حيث راح يرسل بعوثه إلى عَرَفَة بجوار مكة ولا يقاتل في الكعبة، وفق ما أوصاه به عبد الملك[1].

ولمّا طال الحصار، استأذن الحجّاج خليفته عبد الملك في قتال ابن الزبير بمكة؛ فأذن له وأرسل له مدداً، عندئذ زحف الحجّاج من الطائف ودخل مكة في ذي الحجة سن ٦٩٢/٧٢[2] ونصب المنجنيق على جبل أبي قُبَيْس[3]، وأخذ في رميها، وبدلاً من أن يؤنّبه خليفة المسلمين على فعلته نجده يزكّيه، ويعبّر عن فرحته بتكبيره الذي تردّدت أصداؤه في دور دمشق وأسواقها وجوامعها، فسُمّي الحجّاج بالمحل[4]؛ بسبب إحلاله ضرب الكعبة قِبلَة المسلمين.

والجدير بالذكر؛ أن الحجّاج توقف في أيام الموسم عن رمي الكعبة، ليقضي الناس مناسك الحج، فما أن انصرفوا حتى عاد إلى مقاتلة ابن الزبير[5] ولما استمر الحصار أكثر من ستّة أشهر أخذ

---

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٢٠.

(٢) الكامل، جـ ٤، ص ٣٥٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٦٦؛ الأخبار الطوال، ص ٣١٤ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٢. وأبو قبيس: هو الجبل المشرف على مكّة من غربها، وكان يسمى في الجاهلية «الأمين» لأنه استودع فيه الحجر الأسود، شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، جـ ٤، ص ٣٥٠. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠/١٩٩٠.

(٤) مروج الذهب، جـ ٣، ص ١١٢ - ١١٣.

(٥) الطبري، جـ ٥، ص ٢١؛ الكامل، جـ ٤، ص ٣٥٠.

أصحاب ابن الزبير يهجرونه ويلجأون إلى الحجّاج، الذي أعطاهم أمانه[1] ولكن ذلك لم يفتّ من عزيمة ابن الزبير الذي راح يقاتل جند الشام بنفسه وبعزيمة شديدة على الرغم من كبر سنّه[2].

ولمّا يأس ابن الزبير من النصر، ودّع أُمه أسماء وتصدّى لأعدائه وكأنه أسد هائج[3]، فكان يكرّ ويرجع للصلاة في الكعبة، وقاتل حتى قُتِل في المسجد الحرام في جمادى الآخرة سنة ٧٣/ تشرين الأول ٦٩٢[4].

غير أن الحجّاج لم يكتفِ بقتل ابن الزبير وصلبه، وإرسال رأسه إلى عبد الملك[5] ولكنه راح ينكل ببني هاشم، فتوعّد محمد ابن الحنفية وأجبره على مبايعة عبد الملك، وهدّد بضرب عنق عبد الله بن عمر حتى أقرّ لعبد الملك بالسمع والطاعة[6].

وهكذا انتهى حكم ابن الزبير لمكة الذي دام حوالي العشر سنين (٦٣ - ٧٣/ ٦٨٢ - ٦٩٢) شَهِدَت البلاد خلالها للكثير من الويلات والكوارث، وإن كنّا لا ننكر أنه كاد أن يصبح أميراً للمؤمنين

---

(١) الكامل، جـ ٤، ص ٣٥٢.
(٢) مروج الذهب، جـ ٣، ص ١١٤؛ كان في الثالثة والسبعين من عمره.
(٣) مروج الذهب، جـ ٣، ص ١١٣؛ الكامل، جـ ٤، ص ٣٥٢ وما بعدها.
(٤) الأخبار الطوال، ص ٣١٥؛ وفيات الأعيان.
(٥) أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٣٦٨؛ ابن سعد، جـ ٥، ص ٢٢٩.
(٦) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٨١، ٨٢ - ٨٣.

لكل العالم الإسلامي لو تمتّع بشيء من الدهاء وقاتل خارجَ الديار المقدسة، أو وضع يده بيد الحصين بن نمير السكوني الذي ضَمِنَ له الخلافة بشرط أن يصطحبه إلى الشام.

مهما يكن من أمر، فإن الحجّاج أراد إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه، قبل أن يُعيد ابن الزبير بناءها، فكتب الحجّاج إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، فأمره عبد الملك بتعديلها، فاغتنم الحجّاج الفرصة، فنقض بناءها، وأعادها إلى قواعدها الأولى، وسدّ الباب الذي أحدثه ابن الزبير[1] وجعل الحجر الأسود من الخارج، بعد أن كان من الداخل[2] ولعلّه أراد بذلك أن يمحو كل أثر لابن الزبير، فكان بناء الحجّاج للكعبة هو الثاني منذ الإسلام، وهو البناء القائم ليومنا[3]. فلما فرغ منها، أرسل إليه عبد الملك كسوتها من الحرير ثم وفد للحجّ في سنة ٧٥/٦٩٤[4].

ولكي يمنع عبد الملك وقوع أيّ فتنة أخرى بمكة، فقد ولّى

---

(١) أخبار مكة، ص ١٤٥ ـ ١٤٦؛ فتوح البلدان، ص ٥٩؛ المعارف، ص ٢٠١؛ مروج الذهب، جـ٣، ص ٨٣؛ مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٢.

(٢) الأخبار الطوال، ص ٢٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١٦؛ مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٢.

(٤) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٢٢٩ فما بعدها؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٧٣.

الحجّاج قائده الجبّار، عاملاً له على الحجاز وما يتبعها، فضبطها له تماماً، واستمر يدير شؤونها مدة ثلاث سنين [1].

والمُلاحظ بعد تلك الأحداث؛ أن أنظار المؤرّخين انصرفت عن العناية بتفاصيل الحوادث في الحجاز، ويعود السبب في ذلك إلى توجّه اهتماماتهم نحو المشكلات الكبرى التي كانت تواجه الخلافة العربية في بلاد الشام، وبالتالي انشغالهم ببعض أمصار المسلمين التي تميّزت بحوادثها المصيرية في المنطقة.

ومما يؤكد هذا الأمر؛ أن المصادر اكتفت، وفي أماكن عديدة؛ بذكر أسماء وُلاة مكة الذين حكموا بعد تلك الفترة، وإن كان لا يخلو ذلك من بعض الإشارات أو التلميحات التي لا تَفِي بالغرض، وبالعودة إلى المصادر تبيّن أن مَن تولّى أمر مكّة لعبد الملك بن مروان، بعد قتل ابن الزبير هم: الحجّاج بن يوسف الثقفي [2]، ومسلمة بن عبد الملك، والحارث بن خالد المخزومي، وخالد بن عبد الله القسري، وعبد الملك بن سفيان المخزومي، وعبد العزيز بن عبد الملك بن خالد، ونافع بن علقمة الكناني، ويحيى بن الحكم بن أبي العاص [3]، وأبّان بن عثمان بن عفّان [4]، وهشام بن إسماعيل المخزومي [5].

---

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٣٤، ٤٠؛ المعارف، ص ٢٢٣.
(٢) الكامل، جـ ٤، ص ٣٦٣، ٣٧٣.
(٣) شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٢؛ قابل: فتوح البلدان، ص ٦٥.
(٤) الطبري، جـ ٥، ص ٨٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٧، ١٥١.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ١٦٢، ٢١٠، ٢١٦.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦/ ٧٠٥ - ٧١٥) وَلِيَ الحرمين عمر بن عبد العزيز[١] الذي كان أهل مكة يستسقون بصلاته ودعائه في سنوات القحط[٢]، ومن مآثر عهده أنه تمّ على يده هدم مسجد رسول الله (ﷺ) في المدينة وأعاد بناءه بعد أن زاد فيه المنازل التي حوله وحُجرات أزواج النبي (ﷺ) وفرغ من بنائه سنة ٩٠/٧٠٩[٣].

غير أن الوليد عاد فعزل عمر بن عبد العزيز وعيّن مكانه خالد بن عبد الله القسري[٤] ويعود السبب في ذلك؛ أن أهل العراق كانوا يفرّون من جور الحجّاج وظلمه ويلجأون إلى مكة للإقامة تحت حكم عمر الذي عُرِفَ بعدله وحُسْن سياسته، وبدافع غِيرَة عمر على الرعيّة كتب إلى الوليد يخبره بما أدّى إليه تعسّف الحجّاج، الذي ما أن علم بالخبر حتى سعى لدى الوليد لعزل عمر وتولية خالد القسري[٥] فأخذ الوليد برأي الحجّاج واستعمله على مكة وأرسل إليه ثلاثين ألف دينار فضُربت صفائح؛ وجُعِلَت على باب الكعبة، وعلى الأساطين التي داخلها، وعلى الأركان والميزاب؛ فكان أول مَن ذهّب البيت في الإسلام[٦].

---

(١) الأخبار الطوال، ص ٣٢٦.

(٢) الطبري، جـ ٥، ص ٢٢٤؛ الكامل، جـ ٤، ص ٥٣٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٨٤.

(٤) الطبري، جـ ٥، ص ٢٤٥.

(٥) الكامل، جـ ٤، ص ٥٧٧.

(٦) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٨٤؛ الأزرقي، ص ١٤٦.

ولما أُنجِزَت تلك العمائر والإصلاحات، وفد الوليد حاجّاً في سنة ٩١/ ٧١٠[١] وهو يتشوّق لمشاهدة البيت وتذهيبه[٢] والنظر إلى بناء مسجد الرسول (ﷺ)، فزاره بعد أن أخرج الناس منه، ثم صلّى فيه الجمعة وخطب في الناس من على منبره[٣]. وقد بقي خالد في إمارة مكة حتى وفاة الوليد سنة ٩٦/ ٧١٥[٤].

وبعد الوليد تولّى خلافة بني أُميّة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩/ ٧١٥ ـ ٧١٧) فأبقى على خالد القسري في مكة، وكتب إليه يأمره أن يُجري له عيناً تخرج من الثقبة من الماء العذب، حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود، يُباهي بها زمزم، فامتثل خالد لأوامر الخليفة وعمل البركة التي تُعرَف «ببركة القسري»[٥].

ولم يقم خالد بمكة إلاّ قليلاً حتى سخط عليه سليمان، فصرفه، وولّى طلحة بن داود الحضرمي[٦]. وأمره أن يجلد خالداً بالسِّياط[٧]. وفي سنة ٩٧/ ٧١٦ حجّ بالناس الخليفة سليمان[٨] ولما صدر من الحج عزل طلحة بن داود عن مكة، وكان عمله عليها ستّة

(١) الأخبار الطوال، ص ٣٢٨.
(٢) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٨٤.
(٣) مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق de Goéje، ص ٦، ط. بريل، ١٨٧١؛ الكامل، ج ٤، ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥.
(٤) الطبري، جـ ٥، ص ٢٨٥؛ الكامل، جـ ٤، ص ٥٥٤، ٥٨٤.
(٥) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٦٣.
(٦) الطبري، جـ ٥، ص ٢٨٥.
(٧) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٩٤.
(٨) لعيون والحدائق، جـ ٣، ص ٢٤.

أشهر، وولّى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد[1]. وظلّ في أمارته إلى أن تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١/ ٧١٧ - ٧٢٠).

واستناداً إلى تاريخ الطبري، فإنه لم يتولّ إمارة مكة في خلافة عمر بن عبد العزيز سوى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد[2] وفي عهده ورد كتاب من الخليفة عمر ينهى عن كِراء بيوت مكة، ويمر بتسوية بيوت منى، فجعل الناس يدسّون إليه الكِراء سراً[3].

ولمّا تولّى الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥/ ٧٢٠ - ٧٢٤) أبقى على عبد العزيز بن عبد الله بن خالد[4] ثم عاد فعزله في سنة ٧٢١/١٠٣، واستعمل عبد الرحمن بن الضحّاك بن قيس الفهري بعد أن جمع له مكة والمدينة[5]، ثم عزله عنهما في سنة ٧٢٣/١٠٤، وذلك لأنه خطب فاطمة بنت الحسين بن علي، فامتنعت من قبوله، فألحّ عليها وتوعدها بأن يضرب أكبر ولدها بالسِّياط، فكتبت إلى يزيد كتاباً تعلمه ذلك، فعزله وولّى عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري، وأمره أن يصادر عبد الرحمن بأربعين ألف دينار، ويعذّبه حتى يسمعه صوته، ففعل

---

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٢٨٦، ٢٩١؛ الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ٢٦.
(٢) جـ ٥، ص ٣١٠، ٣١٧.
(٣) فتوح البلدان، ص ٥٦؛ شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٣.
(٤) الطبري، جـ ٥، ص ٣٣٧، ٣٥٩.
(٥) الكامل، جـ ٥، ص ١٠٥.

ذلك، فرُئِيَ عبد الرحمن عليه جُبّة من صوف يسأل الناس[1].

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥/ ٧٢٤ - ٧٤٣) بقي عبد الواحد النضري يدير شؤون الحجاز (مكة والمدينة والطائف)[2] إلى أن عزله هشام في سنة ١٠٦/٧٠٤ وولّى مكانه خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي[3]، وكان رجلاً مُعتدّاً بنفسه، فذكر الطبري أنه خطب بمنى سنة ١١٠/٧٢٨ فقال للحجيج: «سلوني فأنا ابن الوحيد لا تسألون أحداً أعلم منّي» فقام إليه رجل من أهل العراق، فسأله عن الأضحية أواجبة هي أم مستحبّة؟ فلم يحر جواباً[4].

واستمر إبراهيم يُدير شؤون مكة وسائر الحجاز حتى عزله الخليفة في سنة ١١٤/٧٣٢[5]، وولّى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي[6]. ويشير اليعقوبي إلى أن آخر وُلاة هشام على مكة كان إبراهيم المخزومي[7].

---

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣١٢ - ٣١٣؛ الطبري، جـ ٥، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) الكامل، جـ ٥، ص ١٢٦.

(٣) الطبري، جـ ٥، ص ٣٨٧.

(٤) جـ ٥، ص ٣٩٧. الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ١٤٥.

(٥) الكامل، جـ ٥، ص ١٣٤، ١٣٨، ١٤١، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٩.

(٦) الطبري، جـ ٥، ص ٤٢٥، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٦٤، ٤٨١، ٤٩٧، ٥٠٧، ٥١٣.

(٧) جـ ٢، ص ٣٣١.

والجدير بالذكر، أن سفيان بن عُيينة وُلِدَ في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك وذلك في سنة ١٠٧/٧٢٥، وفي حدود سنة ١٢٢/٧٤٠ انتقل إلى مكة، ولم يغادرها حتى سنة ١٢٦/٧٤٤ زمن الخليفة الوليد الذي عزل عامل مكة من قبل عمّه هشام.

وذكرت المصادر، أنه لمّا تولّى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤) وجّه خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على مكة والمدينة والطائف، وأمره بالقبض على إبراهيم بن هشام المخزومي وأخيه محمد، وكانا في إمارة مكة قبله، والتوجّه بهما إلى عامله على العراق، فلما قَدِمَا عليه عذّبهما حتى قتلهما وذلك لأسبابٍ كانت تبلغ الخليفة عنهما في عهد إمارتيهما على مكة[١].

وقد ظلّ يوسف بن محمد والياً على مكة إلى أن عزله الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف «بالناقص» (١٢٦/٧٤٤)[٢] وولّى مكانه عبد العزيز بن عمر[٣].

وفي عهد إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك «الخليع»

---

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٥٣٥؛ الكامل، جـ ٥، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) الطبري، جـ ٥، ص ٥٩٣؛ وسُمّي «الناقص»: لأنه نقص من أُعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الفخري، ص ١٣٦).

(٣) الطبري، جـ ٥، ص ٥٩٦، وقيل إنه تولّى مكة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك؛ شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٣.

(٧٤٤/١٢٦)، لم يحصل أيّ تغيير في شؤون مكة[١] وبعد أربعة أشهر من حكمه انتقلت الخلافة إلى مروان بن محمد[٢] (١٢٧ ـ ١٣٢/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠) وهو آخر خلفاء بني أميّة.

ولعلّ كلّ ما حدث بمكة في عهد مروان؛ أنه أبقى على عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فظلّ يدير شؤون مكة والمدينة والطائف حتى سنة ٧٤٧/١٢٩، ثم عزله وولّى مكانه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[٣] كما تولّى أمر الحجّ[٤] وفي الوقت نفسه وافى المواسم المختار بن عون الحروريّ الأزديّ، المعروف بأبي حمزة الخارجي، الذي قَدِمَ مكة رافعاً راية العصيان ضدّ دولة بني مروان، فهاجم مكة في ذي الحجّة ٧٤٧/١٢٩ في سبعمائة رجل، لم يستطع عبد الواحد مواجهتهم ففرّ في يوم الأضحى إلى المدينة، وزحف أبو حمزة على مكة فاستولى عليها[٥].

بعد ذلك؛ قصد أبو حمزة المدينة فهزم عبد الواحد ودخلها في سنة ٧٤٨/١٣٠ ثم سار إلى الشام لقتال الأمويين، فلقيه خيل لمروان عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي فهزمه

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٥٩٦؛ وقد سُمّي إبراهيم «بالخليع» لأنه خُلِعَ من قِبَل مروان بن محمد قبل أن يستكمل مدّته. (الفخري، ص ١٣٧؛ محمد بن يزيد؛ تاريخ الخلفاء، ص ٣٥).

(٢) الكامل، جـ ٥، ص ٣١١.

(٣) الطبري، جـ ٥، ص ٦٢٢ وجـ ٦، ص ١٧، ٤٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٤٨.

(٥) الطبري، جـ ٦، ص ٤١ ـ ٤٢، ٥٦ ـ ٦١؛ الكامل، جـ ٥، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

واستعاد منه المدينة، فتراجع أبو حمزة إلى مكة، فحصره ابن عطيّة، حتى قتله، ثم استولى على مكة وجعل عليها ابن ماعز وهو رجل من أهل الشام[1].

وذكر الطبري أنه في سنة ١٣٠/٧٤٨ كانت إمارة مكة لمحمد بن عبد الملك بن مروان، ثم تولّها بعده في سنة ١٣١/٧٤٩؛ الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي، وهو ابن أخي عبد الملك بن محمد بن عطية الذي قَتَلَ أبا حمزة[2] وفي عهد هذا الوالي أُقفِل الستار على آخر وُلاة بني أُميّة في مكة.

٣ ـ الحالة السياسية في مكة على عهد العباسيين:

بعد بني أُميّة انتقلت الخلافة إلى بني العباس؛ فحكموا البلاد أكثر من خمسمائة سنة (١٣٢ ـ ٧٥٠/ ٦٥٦ ـ ١٢٥٨) وكان أبو العباس السفّاح (١٣٢ ـ ١٣٦/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤) أول الخلفاء العباسيين[3]، فما أن اعتلى سُدّة الحكم حتى نشط أخوه أبو جعفر المنصور بأخذ البيعة له في الحرمين الشريفين (مكة والمدينة)؛ اللتين دانَتَا له بالطاعة، ولم يلقَ معارضة تُذكَر إلّا من قِبَل بعض العلويين، وبخاصة الحسنيين، وعلى رأسهم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، هما: محمد النفس الزكيّة وأخوه إبراهيم، اللذان امتنعا عن إعطاء البيعة عن نفسيهما،

(١) الطبري، جـ ٦، ص ٦٠ ـ ٦١؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٤٠.

(٢) جـ ٦، ص ٦٣، ٧٠.

(٣) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٣٦.

ثم اختفيا وراحا يحضران لأخذ حقّهما في الخلافة[1] بعد أن غدر بنو العباس بالحسنيين، وطعنوا في المقررات التي اتُّخِذَت في الاجتماع التاريخي الذي عقد بمكة في أواخر أيام بني أميّة، وقد ضمّ جماعة من بني العباس على رأسهم إبراهيم الإمام والسفّاح والمنصور، وجماعة من العلويين منهم: جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن ومحمد النفس الزكية، وفيه تمّ التوافق على أن يكون محمد النفس الزكية هو خليفة المسلمين بعد زوال دولة بني أميّة[2].

والملاحظ منذ البداية؛ أن بني العباس تركوا الحسنيين وشأنهم، ولم يتعرّضوا لهم لانشغالهم في استئصال بني أميّة، وتدعيم سلطانهم في الحجاز[3] وقد استغرق ذلك جُلّ عهد السفاح، الذي وَلّى أمر مكة إلى عمّه داود بن علي بن عبد الله بن العباس[4] في سنة ١٣٢/٧٥٠، وأضاف إليه المدينة واليمن واليمامة[5]. فقَدِمَ

(١) العيون والحدائق، جـ ٣، ص ٢٣١ وما بعدها؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥١٨ وما بعدها.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٢٥٩؛ الفخري، ص ١٦٤ ـ ١٦٥. قابل: الطبري، جـ ٦، ص ١٥٦ وما بعدها؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥١٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٦٠؛ الكامل، جـ ٥، ص ٤٢٩ وما بعدها.

(٤) المعارف، ص ٢١٠؛ خليفة بن خياط، كتاب التاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، جـ ٢، ص ٤٣٨، ط ١، النجف: مطبعة الآداب، ١٣٨٦/١٩٦٧.

(٥) الطبري، جـ ٦، ص ١١١؛ الكامل، جـ ٥، ص ٤٤٥. واليمامة منطقة واسعة في نجد وكانت تتبع مكّة في كثيرٍ من عهود الخلفاء. معجم البلدان، جـ ٥، ص ٥٠٥ وما بعدها.

داود وعامل مروان الوليد بن عروة السغدي مقيم بمكة، لم يعلم أن الناس بايعوا أبا العباس فلما علم بذلك فرّ هارباً[1].

وأما داود، فخطب في أهل مكة خطبة له مشهورة، تمّ إعطائهم الأمان، فقال لهم: «وأنتم آمنون بأمان الله... وقد غفرنا التَبِعَات، ووهبنا الظلامات، فلا وربّ هذه البنية لا نهيج أحداً! وضرب بيده إلى الكعبة»[2]، ولما انقضى الموسم في سنة ١٣٣/٧٥١ قَتَلَ داود مَن ظفر به من بني أُميّة بمكة والمدينة[3].

وقبل أن يتوفى داود؛ استخلف على عمله ابنه موسى، ولمّا بلغت أبا العباس وفاة عمّه؛ وجّه على مكة وسائر الحجاز خاله زياد بن عبد الله الحارثي[4]. فظلّ يدير شؤونها حتى سنة ١٣٥/٧٥٣، ثم عزله وولّى مكانه العباس بن عبد الله بن معبد[5] وهو آخر وُلاة السفّاح.

ثم انتقلت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥) فكان يغيّر وُلاة الحجاز باستمرار، وفي يقينه أن هذه السياسة من شأنها أن تساعده في إحكام سيطرته على المنطقة التي تتعاطف مع العلويين الذين يشكّلون خطراً كبيراً على عرشه.

---

(١) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٥١.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٣) الطبري، جـ ٦، ص ١١١.

(٤) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٣٨؛ الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ٤٤٨.

(٥) الطبري، جـ ٦، ص ١١٦، ١١٨، ١٢٢؛ الكامل، جـ ٥، ص ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٦٣. يذكر خليفة بن خياط أن آخر وُلاة السفّاح هو علي بن الربيع، جـ ٢، ص ٤٣٨.

والواضح؛ أن أبا جعفر قد أبقى على ولاية العباس بن عبد الله بن معبد على مكة إلى أن توفي هذا الأخير عند انقضاء الموسم سنة ١٣٧/٧٥٥، فضمّ أبو جعفر عمل مكة إلى والي المدينة زياد بن عبد الله الحارثي[١]، فدامت ولايته حتى سنة ١٤١/٧٥٨[٢] ثم عزله وولّى الأمر بعده الهيثم بن معاوية العتكي الخرساني[٣] فاستمر إلى سنة ١٤٣/٧٦٠، حيث عُزِلَ عن مكة والطائف ووليَ ذلك السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب[٤] فاستمر يدير ولايته حتى سنة ١٤٥/٧٦٢ حيث أجلته ثورة محمد النفس الزكيّة[٥].

والحقيقة أن محمداً لم يكن يبغي الإعلان عن ثورته في هذا الوقت المبكر من عهد المنصور، ولكن هذا الأخير أقلقته أخبار اختفاء محمد؛ إلى جانب استئناف نشاطه المُعادي لدولة بني العباس[٦]؛ لذا استعمل الخليفة كلّ دهائه ومَكْره لاستخراج الأسد من عرينه[٧]، وقد تحقّق له ذلك عندما انتدب لولاية المدينة

(١) الطبري، جـ ٦، ص ١٢٢، ١٣٧؛ الكامل، جـ ٥، ص ٤٦٣، ٤٨٣، ٤٨٦.

(٢) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٦٠؛ الطبري، جـ ٦، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٣) الطبري، جـ ٦، ص ١٥٢، ١٥٤؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥٠٧، ٥١٠.

(٤) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٦٠.

(٥) الطبري، جـ ١، ص ١٥٥، ١٨٣، ٢٦٣؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥١٢، ٥٢٧، ٥٢٩ وما بعدها.

(٦) الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ٥١٤، ٥١٨، ٥٦٢ وما بعدها.

(٧) الطبري، جـ ٦، ص ١٩٤.

رباحاً بن عثمان المرعي في سنة ١٤٤/٧٦١[1]، وأمره أن يأخذ أهلها بالشدّة وأن لا يرحم علوياً؛ مما تسبّب في حبس عددٍ كبير من الطالبيين وعلى رأسهم عبد الله بن الحسن والد النفس الزكيّة[2]، كما أمر أبو جعفر عامله بأن يحمل بني الحسن إليه في الكوفة حيث أخذ في تعذيبهم، ثم عمد إلى قتلهم واحداً بعد آخر[3].

إن هذه التطوّرات عجّلت بخروج محمد في المدينة؛ من غير أن يُعلِم بذلك أخاه إبراهيم، الذي فرّ إلى البصرة وجعلها تبايع لمحمد، وتنتظر إشارة منه لتعلن الثورة ضدّ بني العباس[4] وكان ظهور محمد في ٢٧ جمادى الآخر سنة ١٤٥/٧٦٢[5]؛ فتمكّن من الاستيلاء على المدينة المنوّرة، التي انضمّ إليه معظم أهلها، ولا سيما بعد أن شجّعهم الإمام مالك بن أنس على ذلك[6] لأنه كان يرى أن محمد النفس الزكيّة يتمتع بصفات عالية تؤهّله لتولّي خلافة المسلمين التي قد يعود بها إلى العصر الراشدي.

ومهما يكن من أمر؛ فإن النفس الزكية لم يكتفِ بالاستيلاء على المدينة، وإنما سيّر أصحابه إلى مكة فافتتحها في سنة

(١) العيون والحدائق، جـ٣، ص ٢٣٥ - ٢٣٧؛ تاريخ خليفة بن خياط، جـ٢، ص ٤٤٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٣٧٠/ الطبري، جـ٦، ص ١٨٢ وما بعدها.

(٣) مروج الذهب، جـ٣، ص ٢٩٨ - ٢٩٩؛ العيون والحدائق، جـ٣، ص ٢٣٧؛ الكامل، جـ٥، ص ٥٢٦ - ٥٢٧.

(٤) اليعقوبي، جـ٢، ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ الكامل، جـ٥، ص ٥٢٩.

(٥) العيون، جـ٣، ص ٢٣٩؛ الكامل، جـ٥، ص ٥٢٩.

(٦) الطبري، جـ٦، ص ١٩٠؛ مقاتل الطالبيين، ص ٢٤٩.

ـ ٧٦٢/١٤٥، كما أجبر عاملها السري بن عبد الله على تركها، وولّى مكانه الحسن بن معاوية العلوي[١]. في هذه الأثناء جاءته بيعة أهالي خراسان ومصر والشام[٢].

إزاء ذلك؛ فكّر أبو جعفر في أن يشخص إلى الحجاز بنفسه؛ إلّا أنه لم يكن يقدر أن يترك مركز الخلافة، فأرسل نحو محمد وليّ عهده عيسى بن موسى في جيش كثيف ومعه حميد بن قحطبة، فحاصروا المدينة من كل جهاتها، وبعث عيسى بعسكر إلى طريق مكة، ليعترضوا محمداً إن فرّ إليها[٣] عندئذ أشير على محمد أن يأتي مصر لأن فيها رجالاً ومالاً، أو ينسحب إلى مكة التي فيها العديد من أصحابه، أو يفلت إلى البادية؛ إلّا أن أتباعه صمّموا على البقاء في مدينة الرسول (ﷺ)، ثم عمدوا إلى حفر الخندق وتأهّبوا للحرب[٤]؛ التي بدأت بالمبارزة، وكان محمد على رأس المُبارزين، حتى أنه قتل بيده سبعين رجلاً، وكان يحارب بسيف ذي الفقار، فجعل يهذّ الناس هذّاً، وكان أشبه الناس بقتال حمزة[٥].

---

(١) الطبري، جـ٦، ص ٢٠٠ وما بعدها؛ العيون والحدائق، جـ٣، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩. والحسن بن معاوية هو ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(٢) اليعقوبي، جـ٢، ص ٣٧٦؛ مروج الذهب، جـ٣، ص ٢٩٤.

(٣) الطبري، جـ٦، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥؛ اليعقوبي، جـ٢، ص ٣٧٦.

(٤) الطبري جـ٦، ص ٢٠٧؛ مقاتل الطالبيين، ص ٢٧٦ ـ ٢٣٧.

(٥) الكامل، جـ٥، ص ٥٤٧؛ وحمزة بن عبد المطّلب هو عمّ النبي (ﷺ) وقد توفي في وقعة أُحُد سنة ٣ هـ/٦٢٤ م، وهو أسد الله وأسد رسول الله (ﷺ)، المعارف، ص ٧٤، ٩٤.

وأخيراً؛ بقي محمد في حوالي ثلاثمائة رجل، فاستماتوا حول سيدهم إلى أن قتلوا جميعاً، حينئذٍ أحاط العباسيون بالنفس الزكية الذي كان يردّد: «أنا ابن نبيّكم»[1] ولكن حميد بن قحطبة تمكّن من قتله، واحتزّ رأسه، ووضعت في طبق، لتجوب الأقطار، وصلب جسده، وسلب سيفه ذو الفقار وكانت الوقعة يوم الاثنين بعد العصر في ١٤ رمضان سنة ١٤٥/ شباط ٧٦٣[2] بعد أن مضى حوالي الشهرين على إعلان الثورة.

وبعد ذلك؛ سيّر أبو جعفر جيشاً آخر إلى البصرة، فقضى على حركة إبراهيم[3] ثم عاد فتتبّع ذيول الثورة في خراسان والسند واليمن والجزيرة وبلاد المغرب ومصر؛ حتى قضى على كل نأمة تدلّ على حياة العلويين في أمصار الإسلام[4]، وبهذا استتبّ الحكم مرة أخرى للخليفة أبي جعفر الذي تسمّى بعد هذا النصر «بالمنصور».

ولمّا عادت الحجاز إلى سيادة بني العباس: وَلّى المنصور على مكّة السري بن عبد الله حاكمها السابق، ثم عاد فعزله سنة

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٢٣٩؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥٤٩.

(٢) الطبري، جـ ٦، ص ٢١٨ - ٢٢٠؛ عيون، جـ ٣، ص ٢٤٥؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥٥٠، ٥٥٤. قابل: مقاتل الطالبيين، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٢٩ - ٤٥٠؛ الكامل، جـ ٥، ص ٥٦٥ وما بعدها.

(٤) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٥٣؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٧٢ وما بعدها.

١٤٦/٧٦٤[١]، وولّى بعده عمّه عبد الصمد بن علي العباسي[٢]، فعمل على ضرب العلويين بشدّة، ولاحق أتباعهم؛ حتى أنه دفن سديف الشاعر وهو حيّ[٣]، وقد ظلّ عبد الصمد يدير شؤون ولايته حتى سنة ١٤٩/٧٦٧، ثم عزله المنصور وولّى مكانه محمد بن إبراهيم الإمام[٤] فاستمر في مكة حتى نهاية حكم المنصور[٥]، الذي قضى في عام ١٥٨/٧٧٥[٦].

والجدير بالذكر؛ أنه كان للمنصور اهتمامات خاصّة بالمسجد الحرام، بدليل أنه لما شكا الناس إليه أن المسجد لم يعد يتّسع لهم، كتب إلى زياد بن عبيد الله الحارثي عامله على مكة (١٣٧ - ١٤١/ ٧٥٥ - ٧٥٨)؛ يأمره بشراء المنازل التي تَلِي المسجد. فهُدِمَت تلك المنازل، وأُدخِلَت عامّة دار الندوة فيه، حتى

---

(١) الكامل، جـ ٥، ص ٥٧٢، ٥٧٦.

(٢) الطبري، جـ ٦، ص ٢٦٩.

(٣) هو سديف بن ميمون مولى بني العباس وشاعرهم، فظلّ وفيّاً لهم حتى ظهر إبراهيم بن عبد الله الحسني فقصده سديف ومدحه، فغضب المنصور عليه وكتب إلى عبد الصمد بن علي يأمره بقتله، فيقال إنه دفن حيّاً. انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٦٤٧ - ٦٤٨، بيروت: دار الثقافة. د.ت.

(٤) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٦١؛ الطبري، جـ ٦، ص ٢٨٥.

(٥) الطبري، جـ ٦، ص ٢٨٨، ٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢. قال خليفة بن خياط: «إن آخر وُلاة المنصور هو محمد بن عبد الله الكثيري»، جـ ٢، ص ٤٦١، ٤٧١.

(٦) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٣٧.

تضاعفت مساحته، وقد استمر العمل فيه منذ سنة ١٣٨/٧٥٦ وحتى سنة ١٤٠/٧٥٧[١].

وأخيراً؛ لا بدّ من الإشارة إلى أن المنصور كان خلال حكمه يتردّد على الحجاز من حينٍ لآخر، فيؤدّي فريضة الحج، ويتفقّد أحوال الرعيّة، فذكر أنه خرج في عام ١٤٠/٧٥٧ حاجّاً، فأحرم في الحيرة، ثم رجع بعدما قضى حجّه إلى المدينة فتوجّه منها إلى بيت المقدس[٢].

بالإضافة إلى ذلك؛ فقد أقام الحجّ في سنة ١٤٤/٧٦١، وفي سنة ١٥٢/٧٦٩[٣] وأما حجّته الأخيرة؛ فلم تمكّنه المَنِيّة من إتمامها؛ فمات قبل التروية بيوم[٤]، ودفن بأعلى مكة[٥].

ولمّا تولّى الخلافة محمد المهدي بن المنصور (١٥٨ - ١٦٥/ ٧٧٥ - ٧٨٥) أُخِذَت له البيعة بمكة بين الركن والمقام[٦]، ثم جعل الولاية فيها لإبراهيم بن يحيىٰ بن محمد بن علي[٧] فبقي في عمله حتى سنة ١٦١/٧٧٨[٨] وبعد عزله تولّاها

---

(١) اليعقوبي، جـ ٢، ٣٦٩؛ المعارف، ص ٣١٢.
(٢) الطبري، جـ ٦، ص ١٤٦.
(٣) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٩٠.
(٤) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٥٨.
(٥) الأخبار الطوال، جـ ٢، ص ٣٨٥.
(٦) الكامل، جـ ٦، ص ٢١٢.
(٧) الطبري، جـ ٦، ص ٣٥١.
(٨) الكامل، جـ ٦، ص ٥٦.

جعفر بن سليمان[١] فاستمر حكمه فيها حتى سنة ٧٨٢/١٦٦ [٢] وقام بعده بالأمر عبيد الله بن قُثَم بن العباس[٣]، وتوفّي المهدي في سنة ٧٨٥/١٦٩ وعلى مكة أحمد بن إسماعيل بحسب رواية خليفة بن خياط [٤].

والملاحظ؛ أن المهدي كان يتشبّه بأبيه المنصور، لذا أولى مكة الكثير من اهتمامــه، فيُروَى أنه في سنة ٧٧٧/١٦٠ حجّ بالناس[٥] وأثناء ذلك عمد إلى نزع كُسوة الكعبة، وكساها كُسوة جديدة، كما وسّع مسجـد رسول الله (ﷺ)[٦]، وفي سنـة ٧٧٨/١٦١ أمر ببناء القصور بطريق مكّة، وأمر أيضاً باتخاذ المصانع في كلّ منهل منها، وبتجديد الأميال والبُرك، وبحفر الركايا [٧].

ولكي يسهّل الخليفة وصول أخبار الحجاز إليه؛ أمر في سنة ٧٨٢/١٦٦ بإقامة البريد بين مكّة والمدينة واليمن، ببِغَال وإبِل،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، جـ ٢، ص ٤٧١؛ الطبري جـ ٦، ص ٣٧٢.
(٢) الطبري، جـ ٦، ص ٣٨١؛ الكامل، جـ ٦، ص ٦١، ٦٧.
(٣) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٧١؛ الكامل، جـ ٦، ص ٧٣.
(٤) جـ ٢، ص ٤٧١ - ٤٧٢.
(٥) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤٠٢.
(٦) الطبري، جـ ٦، ص ٣٦٦؛ العيون والحدائق، جـ ٣، ص ٢٨٢.
(٧) الكامل، جـ ٦، ص ٥٥. والمصانع: ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية. والركايا مفردها ركية وهي تعني البئر ذات الماء. انظر: محمد بن منظور، لسان العرب، مادة (صنع)، جـ ٨، ص ٢١١، ومادة (ركا)، جـ ١٤، ص ٣٣٣.

فكان أول مَن اهتمّ من الخلفاء بهذا الأمر [١] وفي سنة ٧٨٣/١٦٧ عاد فوسّع المسجد الحرام، ومسجد النبي (ﷺ) [٢].

وخلف المهدي ابنه موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠/ ٧٨٥ - ٧٨٦)، وعلى الرغم من قصْر عهده الذي دام سنة ونيّف [٣] فإن بلاد الحجاز شَهِدت أحداثاً تستحقّ الذكر.

فبعد أن تولّى عبد الله بن قُثَم عمل مكة والطائف، وعمر بن عبد العزيز العمري عمل المدينة [٤] بدأ هذا الأخير بالتهجّم على العلويين، وأخذ رهائن من أبنائهم؛ ليضمن ولاءهم للعباسيين، حتى أنه حبس الحسن بن محمد النفس الزكية، فوضع حبلاً في عنقه وطِيفَ به في المدينة، ثم ضربه بالسِّياط؛ بحجّة أنه كان يشرب الخمر [٥] الأمر الذي دعا الحسين بن علي [٦] لأن يتدخّل لدى العمري ليطلقه، على أن يكون كافِله [٧].

---

(١) الطبري، جـ٦، ص ٣٨٨.

(٢) الكامل، جـ٦، ص ٧٦.

(٣) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨.

(٤) الكامل، جـ٦، ص ٩٤.

(٥) يرى صاحب كتاب مقاتل الطالبيين، (ص ٣٧٣) أن ما ادّعاه العمري على الحسن بن النفس الزكيّة في شرب الخمر، لم يكن إلّا من قِبَل التشهير بالعلويين واستفزازهم.

(٦) هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (اليعقوبي، جـ٢، ص ٤٠٤؛ الفخري، ص ١٩٠)، وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن والد النفس الزكية (مقاتل الطالبيين، ص ٣٦٤).

(٧) الطبري، جـ٦، ص ٤١٠ - ٤١١.

غير أن العمري تمادى في ظُلمه للعلويين مما عجّل بإعلان الثورة في أرجاء المدينة، وفي موسم الحج من عام ١٦٩/٧٨٦ خرج الحسين على رأس جماعة من أعيان أهل بيته[١] فقصدوا دار الإمارة حيث تحصّن العمري، فكسروا السجون وأخرجوا مَن بها، ثم دخل الحسين الجامع وجلس يأخذ بيعة الناس «على كتاب الله وسُنّة نبيّه المرتضى من آل محمد»[٢].

بعد ذلك، وقعت معارك داخل المدينة استمرت أحد عشر يوماً ثم خرج الحسين وأصحابه إلى مكة وقبل رحيله التفت إلى أهل المدينة وقال: «لا خلف الله عليكم بخير»[٣]. ولعلّه كره المقام بين أظهرهم لعدم وفائهم لبيعته. ولأن الكثيرين منهم فضّلوا الرحيل على أن يشهدوا القتال، أو قفلوا أبوابهم دونه، على الرغم من تقرّبه من فقرائهم بإنفاقه المال عليهم؛ بعد مصادرته مدّخرات بيت المال[٤].

والجدير بالذكر؛ أنه عند مجيء الحسين إلى مكة، أراد أن يبيّن للناس أن حركته تستهدف منع الظلم، لهذا أمر فنُودِيَ: «أيّما عبد أتانا فهو حرّ»[٥]، فأتاه عدد كبير منهم، الأمر الذي أغضب أهل مكة[٦].

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٣٧٢، ٣٨٢؛ تاريه اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤٠٤.

(٢) الكامل، جـ ٦، ص ٩١ قارن مقاتل الطالبيين، ص ٣٧٨.

(٣) الطبري، جـ ٦، ص ٤١٣.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٤١٢.

(٥) الكامل، جـ ٦، ص ٩٢.

(٦) الطبري، جـ ٦، ص ٤١٢، ٤١٣.

ولمّا وصلت الأخبار إلى الهادي كتب إلى محمد بن سليمان بن علي بتوليته على الحرب[1] فجمع شيعته ومواليه وقوّاده وتأهّب للقتال، فكان هو على الميمنة، وموسى بن عيسى في الميسرة، وسليمان بن أبي جعفر والعباس بن محمد في القلب[2] وفي ٨ من ذي الحجة في سنة ١٦٩/١١ حزيران ٧٨٦ اشتبك الطرفان في وادٍ اسمه فخ بين مكّة والمدينة حيث دارت معركة رهيبة وغير متكافئة في العتاد والعدّة، ومع أن الحسين أُعطي الأمان إذا استسلم؛ إلّا أنه مثل بقية أئمة العلويين قرّر القتال، مع قلّة من مُناصِريه؛ وقُتِل أكثر من مائة شخص حوله قبل أن يُقتَل، فقطعت رأسه، وحُمِلَت إلى الهادي[3].

وقد بقيت جثث قتلى العلويين دون أن تُدفَن، حتى أكلتها السِّباع والطير[4]، فلما سمع العمري، عامل الهادي على المدينة، بمقتل الحسين بن علي، ظهر من جديد وأحرق بيوت العلويين وصادر أموالهم[5]. وقد اعتبرت هذه الوقعة بعد مأساة كربلاء في فظاعتها[6]؛ لكثرة مَن قُتِل فيها من آل علي، حتى أنه حمل إلى

(١) الطبري، جـ ٦، ص ٤١٣؛ الكامل، جـ ٦، ص ٩٢.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٣٧٨.

(٣) الطبري، جـ ٦، ص ٤١٣ وما بعدها؛ الفخري، ص ١٩٠ ـ ١٩١؛ مقاتل الطالبيين، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٤) مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٢٧؛ معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢٦٩.

(٥) الطبري، جـ ٦، ص ٤١٧؛ مقاتل الطالبيين.

(٦) معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢٦٩. «يقال: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ». المصدر نفسه.

الهادي منهم مائة رأس[1].

وبانتصار الجيش العباسي في فخ عادت السيادة في مكّة إلى وُلاتهم، وبموت الهادي انتقلت الخلافة إلى أخيه هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣/ ٧٨٦ - ٨٠٩).

وفي هذه الفترة التي قاربت الربع قرن أُسنِدَت ولاية مكة إلى عدد من الوُلاة يأتي في طليعتهم وفق ترتيب خليفة بن خياط: عبيد الله بن قثم، فأقرّه عليها ثم عزله وولّى العباس بن محمد بن إبراهيم، ثم عزله وولّى سليمان بن جعفر سليمان، ثم إبراهيم بن موسى بن عيسى، كانت الولاية لأبيه موسى فولّاه، ثم عبد الله بن قثم بن محمد، ثم عبد الله بن محمد بن عمران، ثم عبيد الله بن قثم بن عباس فمات، ثم عبد الله بن محمد بن إبراهيم، ثم العباس بن موسى بن عيسى، فاستخلف طلحة بن بلال، ثم ولّى عليّ بن موسى بن عيسى فاستخلف محمد بن عبد الرحمن المخزومي، ثم حمّاد البربري مولى أمير المؤمنين، ثم محمد بن عبد الله بن سعيد، ثم سليمان بن جعفر بن سليمان مات بها، ثم أحمد بن إسماعيل بن علي، ثم الفضل بن العباس بن محمد، ثم ولّى القاضي محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزومي، فبقي فيها حتى مات هارون[2].

---

(١) الكامل، جـ ٦، ص ٩٣.
(٢) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٤٩٦ - ٤٩٧؛ قابل: الطبري، جـ ٦، ص ٤٤٥، ٥٢٩. الكامل، ج ٦، ص ٢١٤.

والملفت للنظر؛ أن هارون كان من أكثر الخلفاء العباسيين اهتماماً بأمور الحج، حتى أنه حجّ أثناء خلافته تسع حِجج، كانت أولها سنة ٧٨٦/١٧٠، وآخرها سنة ٨٠٤/١٨٨، وأهمها حجة سنة ٧٩٥/١٧٩[1]، حيث أقام الحجّ بالناس ومشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات وشهد المشاهد كلها ماشياً[2].

وأما حجّة سنة ٨٠٢/١٨٦؛ فسُمّيت عام الأُعطيات، فبلغ جملة ما وزّعه الرشيد والأمين والمأمون؛ مليوناً وخمسين ألف دينار، وقد قاموا بذلك البذخ بعد أن كتب الرشيد عهداً بولاية الأمين وآخر بولاية المأمون وعلّقهما في الكعبة[3]، وطلب إلى أهلها أن يحافظوا ما أمكنهم على تنفيذ ما جاء فيه، وأن يكونوا أعواناً على مَن يخالفه، ولعلّه بدفع تلك الأموال كان ينشد شراء موافقة الحجيج وأهل الحرمين على ولاية العهد.

ولكن هذه السياسة التي اعتمدها الرشيد في مكّة؛ لم تقلّل من جهوده التي بُذِلَت لإحياء العيون التي كانت قد طُمِرَت بعد عهد معاوية، كما اتخذ البرك في أعلا مكّة وأسفلها لتصبّ في عين الرشا التي يستقي منها الناس[4]. ولمّا لم تَفِ تلك الإصلاحات بالغرض؛ نشطت زبيدة زوجة الرشيد في بناء قنوات للماء تصبّ في أطراف

---

(١) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤٣٠.
(٢) الكامل، جـ ٦، ص ١٤٧.
(٣) الكامل، جـ ٦، ص ١٧٣. عن نسخة الكتابين راجع: اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤١٦ - ٤٢١.
(٤) أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٨٦.

مكة، وأخرى تصبّ في عَرَفَة، كما أصلحت البركة الموجودة في مكة، وبَنَت بركة غيرها ليصبّ فيها الماء ويستقي الحجيج[1].

وبعد الرشيد اعتلى سُدّة الحكم ابنه محمد الأمين (١٩٣ - ١٩٨ / ٨٠٩ - ٨١٣)، فلما أفضت الخلافة إليه بعث إلى مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى، وعزل محمد بن عبد الرحمن المخزومي عامل الرشيد على مكة، فظلّ داود مُوالياً للأمين، وأقام للناس الحج حتى سنة ١٩٥ / ٨١١؛ فلما دخلت سنة ١٩٦ / ٨١٢، كتب الأمين إلى داود يأمره بخلع المأمون والبيعة لابنه موسى، كما بعث لأخذ الكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما وعلّقهما في الكعبة[2].

عندئذٍ جمع داود الفقهاء وأعيان مكة وذكّرهم بالعهود والمواثيق التي أخذها الرشيد على أهل الحرمين، ودعاهم إلى بيعة المأمون، فأجابوه إلى ذلك، فنادى في شِعاب مكة الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم بين الركن والمقام، وخلع الأمين، وبايع المأمون، فجعل الناس يبايعونه جماعة بعد جماعة ويصافحونه، وبعد أيام كتب إلى ابنه سليمان، وهو عامله على المدينة، يأمره أن يفعل بأهل المدينة كما فعل هو بأهل مكة[3].

ولمّا رجع جواب البيعة من المدينة إلى داود[4]؛ رحل من

---

(١) أخبار مكة جـ ٢، ص ٢٦٥.
(٢) الطبري، جـ ٧، ص ٤٤.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤٥؛ الكامل، جـ ٦، ص ٢٥٠، ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٤) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٥٠٤.

فوره من مكة إلى مرو، فاجتمع بالمأمون وأخبره ببيعة أهل الحرمين، فسُر المأمون بالخبر وتيمّن ببركة مكّة والمدينة، وكافأ داود بأن ثبّته في ولايته وأعطاه خمسمائة ألف درهم معونةً له[1].

وظلّ داود يدير شؤون مكة والمدينة إلى أواخر سنة ١٩٩/٨١٤[2] وخلال ولايته توفي الإمام سفيان بن عُيينة محدّث الحرم المكّي في عام ١٩٨/٨١٣[3].

وقبل أن ننهي هذا الجانب؛ لا بدّ من الإشارة إلى أن مكة ظلّت طوال أكثر العهد العباسي، نهب الثورات التي تسنّها التنافس بين أصحاب الحق في تولّي حكم المسلمين من بني العباس، وخصومهم فيها من الطالبيين؛ لهذا لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً موطأً إلاّ في سنوات قليلة من هذا العهد.

والجدير بالملاحظة؛ أن تبعيّة مكة زمن العباسيين كانت تبعيّة مباشرة يحكمها فيه خلفاء بني العباس حكماً مباشراً لا أثر فيه للاستقلال الذاتي، وأوضح دليل على ذلك؛ تبنّيهم خطة تأمير أبناء بني العباس عليها في معظم سنوات عهدهم، وبهذه السياسة يُحكِمون سيطرتهم على الحرمين الشريفين، وبالتالي على سائر بلاد الحجاز لما لهذه المنطقة من أهمية دينية وسياسية؛ تنعكس إيجاباً على هيبة الخلافة ومركزها بين أبناء الأمة.

---

(١) الطبري، جـ ٧، ص ٤٦.

(٢) الكامل، جـ ٦، ص ٣٠٧.

(٣) تاريخ خليفة، جـ ٢، ص ٥٠٥.

الفصل الثاني

سفيان بن عُيينة؛ نشأته، ونشاطاته العلمية

«إذا كان نهاري نهار سفيهٍ، وليلي ليل جاهلٍ، فما أصنع بالعلم الذي كتبت؟»...

ابن عُيينة

١ ـ مولد سفيان بن عُيينة ونشأته العلمية:

هو سفيان بن عُيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي(١)،

---

(١) كان أبو عمران ميمون الهلالي، جدّ سفيان، من عمّال خالد بن عبد الله القَسْري، فلما عُزِلَ خالد عن العراق في سنة ١٢٠/٧٣٨، ووُلّيَ يوسف بن عمر الثقفي؛ بعهد من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، طلب عمّال خالد؛ فهرب أبو عمران منه إلى مكة فنزلها. (ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٣؛ الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ٢١٩ وما بعدها؛ شمس الدين بن خلّكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، جـ ٢، ص ٣٥٣، بيروت: دار الثقافة، د.ت.). ولدينا رواية أخرى تذكر أن عُيينة والد سفيان هو الذي كان من عمّال خالد القسري. (جـ ٥، ص ٤٩٧؛ أبو الفرج بن الجوزي، صفة الصفوة، بعناية إبراهيم رمضان وسعيد اللحّام، جـ ٢، ص ١٥٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/١٩٨٩).

مولاهم[1]، العلّامة الحافظ[2] أبو محمد الأعور الكوفي، ثم المكّي[3]، أحد أئمة الإسلام[4]، وشيخ الحجاز[5]، ومحدّث الحرم المكّي[6]، وأحد كبار تابعي التابعين[7].

---

(١) كان مولى بني هلال بن عامر بن صعصعة، رهط ميمونة، زوج النبي (ﷺ)، وقيل: مولى بني هاشم، وقيل: هو مولى محمد بن مُزاحم أخي الضحّاك، وقيل أيضاً: مولى الضحّاك بن مُزاحم، وقيل أخيراً: هو مولى مِسعر بن كدام. (راجع: المعارف، ص ٢٨٣؛ طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٤٩٧؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٥، بيروت دار الكتب العلمية؛ وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٩١؛ شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٢، بيروت: دار الكتب العلمية، صورة بالأوفست عن ط. حيدر آباد: الدكن ١٣٧٥/١٩٥٥).

(٢) الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٢.

(٣) شمس الدين أبو الخير الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء، بعناية جـ برجستراسر، جـ ١، ص ٣٠٨، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢. شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، جـ ٧، ص ٢٣٣، ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦/١٩٨٦.

(٤) السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ١١٩.

(٥) الذهبي، دول الإسلام، ص ١١٢.

(٦) أحمد بن قنفذ القسنطيني، كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ص ١٤٩، ط ٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ ٣، ص ١٠٥، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠.

(٧) محي الدين النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق فرديناند وستنفلد، ص ٢٨٩، غوتينغن، ١٨٤٢ - ١٨٤٧.

وُلِد ابن عُيينة بالكوفة ليلة النصف من شعبان سنة ٧٢٥/١٠٧، ثم انتقل إلى مكة فسكنها وتوفي بها سنة ١٩٨/٨١٣[1]، وكان بنو عُيينة عشرة حزازين[2] حدّث منهم خمسة هم:

محمد[3]، وإبراهيم[4]، وسفيان، وآدم[5]، وعمران[6]،

---

(١) ابن حبّان البستي، كتاب مشاهير علماء الأمصار، بعناية فلايشهمر، ص ١٤٩، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩/١٣٧٩؛ وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٣.

(٢) الحزازي؛ الرجل الشديد السوق والعمل، لسان العرب، مادة (حزز)، جـ ٥، ص ٣٣٥.

(٣) روى محمد بن عُيينة عن شُعبة ويحيى بن سعيد، فكان صدوقاً، وكان له فقه. عن سيرته؛ انظر: (محمد البخاري، كتاب التاريخ الكبير، جـ ١، ص ٢٠٤، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت؛ أحمد العجلي، تاريخ الثقات، باعتناء عبد المعطي قلعجي، ص ٤١٠، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤/١٤٠٥).

(٤) هو إبراهيم بن عُيينة، أبو إسحاق، المحدّث، كان إماماً خيِّراً، وُلِدَ سنة ٧٣٨/١٢٠، روى عن الثّوري وشُعبة ومسعر وغيرهم، وليس بالمُكثِر ولا المجود، روى عنه يحيى بن معين، وإبراهيم بن بشّار، قال ابن مُعين: «كان مسلماً صدوقاً ولم يكن من أصحاب الحديث» وقال النسائي: «ليس بالقوي»، وقال العجلي: «صدوق» قيل إنه توفي سنة ٨١٤/١٩٩. (شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط، جـ ٨، ص ٤٧٥، ط ٤، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦/١٤٠٦؛ شهاب الدين بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، جـ ١، ص ١٤٩ - ١٥٠، حيدر آباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٥ هـ؛ ثقات العجلي، ص ٥٣).

=

أشهرهم وأجلّهم سفيان[1]، الذي ترقّت به الأحوال، واشتهر اسمه بين أصحاب الحديث، حتى أصبح «إمام القوم» بشهادة يحيىٰ بن معين[2]، و«سيد الناس» برأي الخليفة هارون الرشيد[3].

ولا ريب؛ أن تلك المكانة التي بلغها ابن عُيينة؛ تعود إلى المحيط العامّ الذي نشأ فيه، وإلى الجهود المُضنِية التي بذلها أثناء مسيرته العلمية، وواضح أن والده عُيينة بن أبي عمران[4]، كان له اليد الطُولى في تأهيل أبنائه، بدليل أنه قدّم للأمة خمسة محدّثين ذكرت كتب الثقات أسماء معظمهم، وناهيك بشخصية سفيان الذي تناقلت أخباره الركبان، الأمر الذي يدفعنا لمعرفة بعض التفاصيل عن نشأته العلمية.

وحقيقة الأمر؛ فإن ابن عُيينة بدأ ينهل من علوم عصره مبكراً، فيحدّث هو عن نفسه فيقول: «قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين،

=(٥) قال أبو حاتم الرازي: «لا يُحتجّ بحديثه، يأتي بالمناكير»، (ابن أبي حاتم، كتاب الجرح والتعديل، جـ ٢، ص ٢٦٧، بيروت: دار الكتب العلمية، صورة بالأوفست عن دائرة المعارف العثمانية؛ الذهبي، المغني في الضعفاء، تحقيق نور الدين عنتر، جـ ١، ص ٦٤).

(٦) روى عمران بن عُيينة عن أبي إسحاق السبيعي، وإسماعيل بن أبي خالد، وعطاء بن السائب وغيرهم، وروى عنه: ابنه الحسن، وعمران الباهلي ومحمد البجلي وأبو سعيد الأشج. قال ابن معين وأبو زرعة: «صالح الحديث»، وقال أبو داود: إبراهيم وعمران ومحمد بن عُيينة «كلهم صالح وحديثهم قريب». (تهذيب ابن حجر، جـ ٨، ص ١٣٦).

(١) تهذيب النووي، ص ٢٨٩، أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٥، قابل: تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٤.

=

وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين»[١].

ويتحدّث الذهبي عن علم سفيان فيقول: «طلب الحديث وهو حدثٌ، بل غلام، ولقي الكبار، وحمل عنهم علماً جمّاً...»[٢]، ولعلّ الذهبي قد استند في ذلك على شهادة أعلام المحدّثين، أمثال شُعبة بن الحجّاج الذي قال: «رأيت ابن عُيينة غلاماً معه ألواحُ طويلة عند عمرو بن دينار، وفي أُذنه قرط، أو قال: شَنف[٣]»[٤]. وقال حمّاد بن زيد: «رأيت سفيان بن عُيينة عند عمر بن دينار غلاماً له ذُؤَّابة[٥] معه ألواح»[٦].

=(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٨٠.
(٤) ذكر البخاري في تاريخه أن عُيينة هو مولى بني هلال الكوفي، رأى الحسن، وروى عنه ابنه سفيان (جـ ٧، ص ٧٣).

(١) تهذيب النووي، ص ٢٩٠. لدينا رواية أخرى تذكر أن سفيان كان قد قرأ القرآن وهو ابن أربع عشرة سنة. (أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٤).
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٤.
(٣) الشَّنْفُ من الحلي: ما يعلق في أعلى الأُذن، والقرطْ: ما يعلق في أسفلها، وقيل هما واحد. لسان العرب، مادة (شنف)، جـ ٩، ص ١٨٣.
(٤) ابن أبي حاتم، كتاب الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٤؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦١.
(٥) ورد في لسان العرب أن أبا حنيفة كان يُذَوِّب أُمه أي يضفُر ذوائبها، (مادة ذوب، جـ ١، ص ٣٩٧)، ويقال للذؤابة: ضفيرة، وهي العقيصة؛ أي الشعر المجدول (مادة ضفر، جـ ٤، ص ٤٩٠)، والمعنى أنه كان لابن عُيينة في صغره ما يُعرَف (بالجدّولة).
(٦) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٤؛ جـ ٢، ص ٢٢٦.

ولا غرابة؛ أن ابن عُيينة كان يتحدّث في مجالسه عن نبوغه في علم الحديث، ويتفاخر أمام أقرانه بأنه كان من أصغر الروّاد لحلقات العلم، فقال: «سألت الزهري[1] عن حديث. . . فطردوني فقال: دعوه، ثم قال: ما رأيت أحداً يطلب هذا الشأن أصغر منه»[2]، ثم تحدّث سفيان عن نباهته التي كان يتحلّى بها منذ نعومة أظفاره فقال: «جالست عبد الكريم الجَزَري[3] سنتين، وكان يقول لأهل بلده: «انظروا إلى هذا الغلام يسألني وأنتم لا تسألوني»[4].

بعد ذلك يعمد ابن عُيينة إلى تحديد السنوات الأولى لأخذه علم الحديث فيقول: «حدّثني قاسم ـ يعني الرحّال ـ سنة عشرين ومائة (١٢٠/٧٣٨)، وأنا يرمئذ ابن ثلاث عشرة»[5]. وفي رواية أخرى يكشف لنا عن عمره عندما بدأ يجالس الرجال ويناظرهم في الحديث النبوي، فيقول: «أول مَن جالست من الناس عبد الكريم أبو أميّة، جالسته وأنا ابن خمس عشرة سنة ـ أي سنة ١٢٢/٧٤٠ ـ»[6].

---

(١) هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، كان إماماً، حجّة في الفقه والحديث، حريصاً على القلب، بصيراً بالقرآن حتى صار مرجع علماء الحجاز والشام، توفي سنة ١٢٤/٧٤٢. مترجم في: (تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ١٠٨؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٤٤٥).

(٢) تاريخ البخاري، جـ ٤، ص ٩٤؛ تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٦.

(٣) هو عبد الكريم بن مالك الجَزَري، أبو سعيد الحرّاني مولى بني أُميّة، متّفق على توثيقه، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٦، ص ٣٧٣).

(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٤؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦١.

(٥) يعقوب الفسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم العمري، جـ ١، ص ١٨٥ ـ ١٨٦، بغداد، مط. الإرشاد، ١٣٩٤/١٩٧٤. =

وحينما يتحدّث عن أخذه الحديث عن الزهري يقول: «جاءنا الزهري مع ابن هشام الخليفة[1] سنة ثلاث وعشرين ومائة (١٢٣/٧٤١)، وخرج سنة أربع وعشرين ومائة (١٢٤/٧٤٢)»، وقال: وسألته وسعد بن إبراهيم عنده فلم يُجِبْني في الحديث، فقال له سعد: أجِب الغلام عمّا سألك. قال: (أما إني أُعطيه حقه). قال سفيان: «وأنا يومئذ ابن ستّ عشرة سنة»[2]... وفي رواية أخرى أضاف «وثلاثة أشهر»[3].

وأثناء حديثه عن شيخه عمرو بن دينار قال: «سمعت من عمرو بن دينار، وأنا ابن ستّ عشرة سَنة، ومات وأنا ابنَ تسع عشرة سنة»[4]. وهذا يعني أنه أخذ عن ابن دينار سنة ١٢٣/٧٤١. والذي يؤكد تلك الصلة القديمة بين سفيان وابن دينار ما ذكره أبو مسلم المُستملي، فقال: سمعت سفيان يقول: «سمعت من عمرو ما لبث نوح في قومه»[5]، يعني تسع مئة وخمسين سنة[6].

=(٦) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٤٩٧؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٤.

(١) الذي أقام الحج عام ١٢٣/٧٤١، هو يزيد بن هشام بن عبد الملك الذي يُعرَف بالأنقم، (تاريخ خليفة بن خيّاط، جـ ٢، ص ٣٧٠؛ تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٢٨).

(٢) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٤٩٧.

(٣) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ١٨٧؛ الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٤.

(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٥) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢٠؛ صفيّ الدين أحمد الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ص ١٢٣، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢.

(٦) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٠.

بعد ذلك تحدّث سفيان عن صلته بابن عجلان[1] فقال: «حفظت الحديث عن ابن عجلان سنة أربع وعشرين ـ يعني ومائة ـ (١٢٤/٧٤٢)، وكان همّام يُجالسنا عنده فكنّا نحفظ له الحديث»[2].

ولعلّ أطرف رواية تصوّر حالة ابن عُيينة إبّان أخذه العلم؛ هي رواية أحمد بن النضر الهلالي، على الرغم من بعض المآخذ عليها. قال أحمد: سمعت أبي يقول: «كنت في مجلس سفيان بن عُيينة، فنظر إلى صبي، فكأن أهل المسجد تهاونوا به لصغره، فقال سفيان: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِنْ قَبلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيكم ﴾[3]. ثم قال: يا نضر! لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشُعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قِصار، وذيلي بمقدار، ونَعْلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار، كالزهري، وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمِسمار، ومِحبَرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا أتيتُ، قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير، ثم ضحك»[4]. ويجد الذهبي أنه في صحة هذه الرواية نظر، لأن ابن عُيينة قد سمع من الزهري وابن دينار وهو ابن خمس عشرة سنة أو أكثر[5]. ويعني الذهبي بذلك أنه كان أكبر من الصورة التي رسمها

---

(١) هو محمد بن عجلان، مدني، متّفق على توثيقه. راجع: تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٣٤١.

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٤) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٩.

(٥) المصدر نفسه، المكان نفسه.

لنفسه. ولعلّ سفيان كان صغيراً ونحيفاً لذا لم يكن حجمه متناسباً مع سنّه. ومن المؤسف فإن المصادر لم تُعطينا وصفاً لشخصية سفيان لنتبيّن حقيقة هذا الأمر.

والثابت لدينا؛ أن عُيينة بن أبي عمران كان يواكب نشاط ابنه سفيان، ويأخذ بيده من حين لآخر، فيزوّده بالنصائح والوصايا حتى لا يضلّ الطريق، وقد حدّث سفيان عن تلك الرعاية التي أولاه إيّاها أبوه فقال: «لمّا بلغت خمس عشرة سنة دعاني أبي فقال لي: «يا سفيان قد انقطعت عنك شرائع الصبا، فاحتفظ من الخير تكن من أهله، ولا يغرنّك مَن اغترّ بالله فمدحك بما يعلم الله خلافه منك، فإنه ما من أحد يقول في أحد من الخير إذا رضي إلاّ وهو يقول فيه من الشرّ مثل ذلك إذا سخط. فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء، ولا تقل أحسن ظنّي بك إلى غير ذلك، واعلم أنه لن يسعد بالعلماء إلاّ مَن أطاعهم، فأطعهم تسعد، واخدمهم تقتبس من علمهم».

قال سفيان: «فجعلت وصيّة أبي قِبلةً أميل معها ولا أميل عنها»(١).

والحقيقة، فإن سفيان أخذ بوصايا أبيه، فاختلط بأهل الخير، وأقبل على العلماء، وخدمهم عن طيب خاطر، فعاد عليه ذلك بالخير العميم، قال سفيان: «... صرت إلى المسجد، فإذا عمرو بن دينار، فحدّثني بثمانية أحاديث، فأمسكت له حماره حتى

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٤ - ١٥٥؛ قابل تهذيب النووي، ص ٢٩٠.

صلّى، وخرج، فعرضت الأحاديث عليه، فقال: بارك الله فيك»[١].

بعد ذلك تهافت ابن عُيينة على حلقات العلم، فراح يتنقل بين المجالس والحلقات ويقصد الاسطوانات بشغف كبير وتتبّع الكبار من أئمة الحديث، حتى أدرك ستّة وثمانين نفساً من أعلام التابعين[٢]، وسمع من سبعين منهم؛ فحمل عنهم علماً جمّاً، وأتقن، وجوَّد، وجمع، وصنّف[٣] وقد غصّت المصادر[٤] بأسماء الشيوخ الذين أخذ العلم عنهم، فسمع من عمرو بن دينار، وأكثر عنه، ومن زياد بن عِلاقة، والأسود بن قيس، وابن شهاب الزُّهري، وعاصم بن أبي النجود، وأبي إسحاق السَّبيعي، وعبد الله بن دينار، وزيد بن أسلم، وعبد الملك بن عُمير، ومحمد بن المُنكدر، وجعفر الصادق، وسالم بن النضر، وصالح بن كَيْسان، وعبدة بن أبي لُبابة،

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٠.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، جـ ٧، ص ٣٠٧، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٠/١٩٨٠؛ صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٨. وقال ابن حجر: «أدرك سبعاً وثمانين تابعياً»، التهذيب، جـ ٤، ص ١٢١.

(٣) عمر بن شاهين، تاريخ أسماء الثقات ممّن نقل عنهم العلم، تحقيق قلعجي، ص ١٥٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٥.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠٧؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٥ - ٤٥٦؛ خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء بيرندرانكة، جـ ١٥، ص ٢٨١، نيسبادن: مرانزشتايز ١٣٩٥/١٩٧٩؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٧ - ١١٨.

وعطاء بن السائب، وأيوب السختياني، وقاسم الرحّال، ومنصور بن المُعتَمِر، وهشام بن عُروة، وحُميد الطويل، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومحمد بن عجلان، وابن أبي ليلى، وسُليمان الأعمش، وحكيم بن جُبير، وابن الزناد عبد الله بن ذكوان، وبكر بن وائل، وأبي حازم الأعرج، وعاصم بن أبي النجود، وعاصم الأحول، وعبد الله بن طاوُس، وعبد الله بن أبي نجيح، وسفيان الثّوري، وشُعبة بن الحجّاج، وزائدة بن قدامة وخلق كثير، وتفرّد بالرواية عن خلق من أعيان العلماء.

وعلى إثر ذلك ذاع صيته بين المحدّثين، وأصبح من أعلام الأمة، ويكفيه فخراً أنه كان أحد الأربعة الذين انتهى إليهم علوّ الإسناد في الحجاز، فقال علي بن المديني: «نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة، الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، ويحيى بن أبي كثير، وأبي إسحاق الهمذاني، والأعمش، ثم صار علم هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف ممّن صنّف، فمن أهل الحجاز مالك، وابن جريج، وسفيان بن عُيينة، ومحمد بن إسحاق»[1].

وفوق ذلك؛ فقد كان سماع ابن عُيينة نقيّاً بحيث يُعدّ واحداً من اثنين اللذين لا مطعن في أحاديثهما، قال علي بن المديني: «الذي سمع سماعاً لا يشكّ فيه، ولم يتكلّم فيه أحد، ولم يطعن فيه طاعن، زياد بن سعد، وسفيان بن عُيينة»[2].

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٤.

(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٨.

٢ ـ رحلاته العلمية:

الواضح؛ أن اجتماع ابن عُيينة بهذا العدد الكبير من أئمة الحديث، كان يتطلّب منه التنقّل والترحال من بلد إلى آخر في أرجاء العالم الإسلامي، فذكر الذهبي، أنه «ارتحل ولقي خلقاً كثيراً ما لقيهم مالك...»[١].

وبعد أن ثبت لدينا أنه كوفيّ المولد، ومكّيّ الدار، فقد وُفّقنا برواية لابن عُيينة نفسه يحدّد فيها الأسباب التي أجبرت أُسرته على ترك مَسقِط رأسه، والتوجّه إلى مكّة فيقول: «كان أبي صيرفياً[٢] بالكوفة، فركبه دَين فحملنا إلى مكّة، فصرت إلى المسجد، فإذا عمرو بن دينار فحدّثني...»[٣].

وفي حين لم يحدّد ابن عُيينة السنة التي رحلت فيها أُسرته إلى مكة، فإن الخطيب البغدادي، يبيّن المدة الزمنية التي قضاها في تلك المدينة قُبيل أن يُعاوده الحنين إلى الكوفة فيقول: «أقام ـ سفيان ـ بمكة من سنة اثنتين وعشرين ومائة (١٢٢/٧٤٠)، إلى سنة ستّ وعشرين ومائة (١٢٦/٧٤٤) ثم خرج إلى الكوفة»[٤] ومما

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٧.

(٢) الصيرفي والصرّاف والصَّيْرَف، والجمع صيارفة: عمله الصَّرف؛ أي يبيع الذهب بالفضة، وكان يقال: صرفتُ الدراهم بالدنانير. لسان العرب، مادة (صرف)، جـ ٩، ص ١٩٠.

(٣) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٠.

(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨١؛ المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ١٨٨.

يؤكد هذه الرواية ما ذكره سفيان عن نفسه فقال: «دخلت الكوفة، ولم يتمّ لي عشرون سنة...»[1].

وفي تلك المدينة العامرة بالعلم والعلماء؛ التقى سفيان بكبار الشيوخ، فسمع من عبد الله بن أبي لبيد وغيره[2]، ولعلّه كان دائم التنقّل بين مكة والكوفة إلى أن وافت سنة ١٦٣/ ٧٧٩ ـ ٨٠ فاستمر بمكة إلى أن توفي سنة ١٩٨/ ٨١٣[3]، وهذا يعني أنه في السادسة والخمسين من عمره اكتفى ذاتياً من علوم عصره، وأقلع عن الرحلة في طلب الحديث، وأصبح مرجعاً في الرواية والإسناد.

والملاحظ؛ أن مكة لم تكن هي بغية ابن عُيينة الوحيدة، وإنما كانت له رحلات أخرى زار من خلالها مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقصد عدن واليمن، فذكر الخطيب البغدادي أنه قَدِمَ بغداد واجتمع مع أبي بكر الهذلي[4] بها، فقال له أبو بكر: «بأيِّ ذنب دخلت بغداد؟»[5]، وذلك لأن العلماء الزاهدين كانوا يتورعون عن

---

(١) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٣.

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٧. وابن أبي لبيد. ثقة، لكنه رُمِيَ بالقدر (تهذيب ابن حجر، جـ ٥، ٣٧٢).

(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢٢.

(٤) هو سُلْمى بن عبد الله أبو بكر الهذلي البصري، روى عن الحسن البصري، وابن سيرين والشعبي وعنه ابن جريج ووكيع بن الجراح وابن عُيينة، ضعّفه غير واحد ولم يوثّقه ابن معين والنسائي، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ١٢، ص ٤٥ ـ ٤٦).

(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٤؛ وجـ ١، ص ٤١.

دخول عاصمة بني العباس[1].

كذلك قصد سفيان عدن، وجالس الحَكَم بن أبّان[2]، وكانت لـه رحلتان إلى اليمن، الأولى سنـة ١٥٠/٧٦٧، والثانيـة سنة ١٥٢/٧٦٩، وكان أثناءها معمّر بن راشد[3] حيّاً، وكان سفيان الثّوري قد سبقه إليها بعام واحد[4]، وأثناء وجوده في اليمن؛ دخل على أميرها معن بن زائدة[5]، فوعظه ونصحه في أمر الأمة[6].

---

(١) عن ذلك؛ راجع: تاريخ بغداد، جـ ١، ص ٢٧ وما بعدها، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٩؛ والحكم بن أبّان العدني: هو أبـو عيسى، وثّقه ابن معين والنسائي والعجلي وغيرهم مترجم في: (تاريخ البخاري، جـ ٢، ص ٣٣٤؛ وثقات العجلي، ص ١٢٦، تهذيب ابن حجر، جـ ٢، ص ٤٢٣).

(٣) هو معمر بن راشد، أبو عروة البصري، سكن اليمن ورحل إليه سفيان الثّوري وغيره من المحدّثين، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في (ثقات العجلي، ص ٤٣٥؛ وتهذيب ابن حجر، جـ ١، ص ٢٤٣).

(٤) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٤٩٧.

(٥) هو الأمير معن بن زائدة الشيباني، كان أحد الأبطال والأجواد، كان مع بني أميّة متنقلاً في ولاياتهم موالياً لابن هبيرة، وقاتل معه المنصور العباسي، فلما قتل ابن هبيرة انضمّ إلى المنصور وعمل في دولة بني العباس حتى قتلته الخوارج سنة ١٥١/٧٦٨. (ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، جـ ١، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣، بيـروت: دار الكتب العلميـة، ١٩٧٩).

(٦) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣.

ومهما تكن دوافع تلك الرحلات التي قام بها ابن عُيينة، فالثابت؛ أنه التقى خلالها بالعديد من الشيوخ، الذين أخذوا بيده، وزوّدوه بآلاف الأحاديث النبوية؛ التي مكّنته من أن يبرز بين مُعاصِريه، خصوصاً بعد أن انتهى إليه علوّ الإسناد، وعلى إثر ذلك بدأ طلاب الحديث بالرحلة إليه لينهلوا من معارفه، فروى الذهبي، أن خلقاً كانوا يحجّون، والباعث لهم لُقيا ابن عُيينة، فيزدحمون عليه في أيام الحج[1]، وقيل إنه جاور عنده غير واحد من الحفّاظ[2].

ولقد روى عنه جمع كبير من شيوخه وأقرانه وتلاميذه منهم: الأعمش، وابن جُريج وشُعبة بن الحجّاج، وسُفيان الثّوري ومِسْعَر بن كِدام ـ وهؤلاء من شيوخه ـ وأبو إسحاق الفَزَاري، وحمّاد بن زيد، والحسنُ بن حيّ، وهَمَّامُ بن يحيى، وعبد الله بن المُبارك، وقيس بن الربيع، وأبو معاوية الضرير، ووكيع بن الجراح، ومُعمر بن سليمان ـ وهم من أقرانه ـ ومحمد بن إدريس الشافعي والحُميديُّ، وعبد الله بن وهب، ويحيى بن سعيد القطّان، وعبد الرحمن بن مَهدي، وأبو أسامة، وروح بن عبادة، والفريابي، وأبو الوليد الطيالسي، وعبد الرزّاق، وأبو نعَيم، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن مَعين، وعلي بن المديني، وإبراهيم بن بشّار الرمادي، وأحمد بن مَنيع، وإسحاق بن راهَوَيه، وزُهَير بن حَرب، والحسن بن الصباح البزاز، وعلي بن حرب وعلي بن خشرم، والزُبير بن بكّار، ويحيى بن أكثم القاضي، وأمم سواهم، خاتمتهم في الدنيا شيخ

(١) تذكرة الحفّاظ، جـ١، ص ٢٦٣.

(٢) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٥٧.

مكّي يقال له: أبو نصر اليَسَع بن زيد الزيني، عاش إلى سنة ٢٨٢/٨٩٥، وما هو بالقويّ(١).

ومن كبار أصحابه المُكثِرين عنه: الحُميديُّ، والشافعي، وابنُ المديني، وأحمد، وإبراهيم الرمادي(٢).

٣ ـ مكانته في علم الحديث:

لقد اعترف المؤرّخون وأئمة الحديث بأهمية سفيان بن عُيينة وبمقدرته العلمية، فقال أبو نعيم الأصبهاني: «كان ـ سفيان ـ عالماً ناقداً...»(٣). وقال ابن كثير: هو «أحد سادة العلماء في الحديث والفقه، وأسماء الرجال»(٤). وأما الشافعي فيجده مميزاً عن سائر الناس، فقال: «ما رأيت أحداً من الناس فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عُيينة»(٥). وشَهِدَ له أيضاً بالعلم الغزير مُشيراً إلى دوره في المحافظة على علم الحجاز، الذي ربما كان مُعَرّضاً للضياع لولا

---

(١) عن شيوخ ابن عُيينة؛ انظر؛ أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧؛ وتهذيب ابن حجر، جـ٤، ص ١١٨ ـ ١١٩؛ وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٣٩١.

(٢) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٥٧.

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٧٠.

(٤) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، جـ١٠، ص ٢٤٤، بيروت: مكتبة المعارف ١٤٠١/١٩٨٨.

(٥) الجرح والتعديل، جـ١، ص ٣٢ ـ ٣٣؛ أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٥٨؛ الوافي بالوفيات، جـ١٥د ص ٢٨١.

جهوده وجهود مالك فقال: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»[1]، ثم أشار الشافعي إلى سِعَة علمه، فقال: «وجدت أحاديث الأحكام كلَّها عند ابن عيينة سوى ستّة أحاديث. . .»[2].

ولعلّ بعض المحدّثين كانوا يُشاطرون الشافعي رأيه في حكمه على علم سفيان، فكان عبد الرحمن بن مهدي يقول: «كان ابن عُيينة من أعلم الناس بحديث أهل الحجاز»[3]. وقال يحيى بن آدم: «ما رأيتُ أحداً يختبر[4] الحديث إلّا ويُخطىء، إلّا سفيان بن عُيينة»[5]، وقال نعيم بن حمّاد: «ما رأيت أحداً أجمع لمتفرّق من ابن عُيينة»[6]. وأخيراً يأتي رأي صالح العجلي وهو تكريس لموقف والده الذي قال: «كان ـ سفيان ـ حسن الحديث، وكان يعتبر من حكماء أصحاب الحديث»[7].

إن هذه الشواهد وغيرها تؤكد مقدرة الرجل في علم الحديث، وتقرّ أيضاً بتفوّقه وتخصّصه بحديث الحجاز، وهذا لا يعني أننا نغبن

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٩؛ الخزرجي، ص ١٢٣؛ شذرات الذهب، جـ ١، ص ٣٥٤.

(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٧.

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٢؛ وجـ ٤، ص ٢٢٧؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣.

(٤) اختبر الشيء؛ أي جرّبه وامتحنه. علمه بحقيقته. لسان العرب، (مادة خبر)، جـ ٤، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٥) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٤.

(٦) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٧) تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٧٩.

فضل مالك في هذا المجال، وهنا يحضرني قول الشافعي الذي تنبّه لهذا الأمر فقال: «مالك وسفيان قرينان»[1].

ولا غرابة، أن كبار المحدّثين كانت لهم نظرة مستقبلية بما يخصّ سفيان، لذا، كانوا يُحسِنون الظن به، وبعلمه الغزير الذي استقّاه من الأئمة التابعين، لهذا كان المحدّثون لا يستنكفون عن عيادته وهو بعد غلام، وكان هو بدوره يعود سادة الأئمة، فكانوا يغتنمون تلك المناسبات، ويسألونه عن أحاديثه الجِياد.

قال سفيان: «ربما عادني ابن أبي نجيح[2] وأنا غُليم، وكنت طويل الملازمة بالليل والنهار»[3]. وقال أبو أسامة: «دخل ابن عُيينة على زائدة[4] وهو مريض، فسأل زائدة ابن عُيينة عن حديث فحدّثه، فدعا زائدة بشيء وكتبه»[5].

ولم يكن زائدة هو الوحيد الذي كان مهتمّاً بأحاديث ابن عُيينة؛ وإنما كان سيّد الفقهاء أيوب السختياني له علاقة وطيدة به، يجمع بينهما الشغف بحديث رسول الله (ﷺ).

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣.

(٢) هو عبد الله بن يسار بن أبي نجيح المكّي، سمع طاوساً وعطاءً ومجاهداً، وسمع منه الثّوري قال ابن عُيينة:مات سنة ١٣١/٧٤٨. (تاريخ البخاري، جـ ٥، ص ٢٣٣).

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥١.

(٤) هو زائدة بن قُدامة الثقفي، أبو الصّلت الكوفي: أحد الثقات الأثبات الأئمة، وثّقه النسائي، وابن سعد، وابن حبّان، والعجلي وغيرهم، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص٣٠٦).

(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥١.

قال سفيان: «كنت ألزم أيوب بالليل عند عمرو بن دينار، وكنت أفيده عن عمرو بن دينار رؤوس الأحاديث، وأذهب معه فأسأل له عن تلك الأطراف، وكان يسألني: (كم روى عمرو عن فلان؟ وكم روى عن فلان)؟ فأقصّها عليه، ثم أكتب له من كل شيخ شيئاً، وأسأل له عمراً عنها، وكتب له أطرافاً عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري [1]»[2].

ونظراً لعلوّ كعب ابن عُيينة في علم الحديث، كان من الصعوبة بمكان أن ينال أيّ محدّث شرف الأخذ عنه، لهذا كان بعد الأئمة يتوسطون لديه بغية أن يحدّث بعض معارفهم، قال يحيى بن سعيد: «رأيت مِسعراً يشفع لإنسان إلى سفيان بن عُيينة يحدّثه»[3].

ويبدو أن عادة التوسّط لدى كبار المحدّثين كانت سائدة آنذاك، فعلى الرغم من أن مِسعَراً كان يقول: «ليس كل أحد يُخْفَ عليّ أن أُكلّمه» فإن سفيان كان يتوسّط لديه بخصوص أحد جيرانه، فقال له: «فإن جارنا خالداً قد كلّمني أن أُكلّمك أن يأتيك فتحدّثه»، فقال مِسعَر: «قل له يجيء»، فقال له ابن عُيينة: «وأنا أجيء معه»؟ قال: «أما أنت فقد جئت عندنا»[4].

---

(١) هو أبو سعيد المدني القاضي، روى عنه السفيانان والحمادان، وثّقه العجلي والنسائي وأحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين وغيرهم، توفي سنة ١٤٣/٧٦٠. مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ١١، ص ٢٢١؛ والسيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٦٤.

(٢) الجرح والتعديل، جـ١، ص ٥٠.

(٣) المصدر نفسه، المكان نفسه، وجـ٤، ص ٢٢٧.

(٤) المعرفة والتاريخ، جـ١، ص ١٨٧.

وهذا يعني أن سفيان كان مسموحاً له بالدخول على مِسعَر في أيّ وقت شاء ذلك، فهو ليس بحاجة لوساطة أو أخذ موعد مُسَبَّق، وهذا إن دلّ على شيء إنما يعني أنه وصل إلى مستوى جعله مقبولاً ومعترفاً بمنزلته لدى كبار أئمة الحديث.

والملاحظ؛ أن مالكاً كان يكنّ لابن عُيينة كل تقدير واحترام ويستقبله في منزله بما يليق به وبعلمه. عن ذلك حدّث علي بن يونس المديني قال: «كنتُ جالساً عند مالك بن أنس فإذا سُفيان بن عُيينة يستأذن بالباب فقال مالك: رجلٌ صالح صاحب سُنَّة، أدخلوه، فدخل فقال: السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ السلام؛ فقال: سلامٌ خاصّ وعامّ عليك يا أبا عبد الله ورحمةُ الله؛ فقال مالك: وعليك السلامُ يا أبا محمد ورحمةُ الله، فصافَحه مالك، وقال: يا أبا محمد، لولا أنها بِدْعة لعانَقناك؛ فقال سُفيان، قد عانق مَن هو خيرٌ منّا، رسول الله (ﷺ)؛ فقال مالك: جعفراً؟ قال: نعم: فقال مالك: ذاك حديثٌ خاصّ يا أبا محمد ليس بعامّ؛ فقال سُفيان: ما عمّ جعفراً يَعُمّنا وما خصّه يخصّنا إذا كنّا صالحين، أفتأذن لي أن أُحَدِّث في مجلسك؟ قال: نعم يا أبا محمد، فقال: حدّثني عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس، أنه لمّا قَدِمَ جعفرٌ أرض الحبشة اعتنقه النبي (ﷺ)، وقبّل بين عينيه، وقال: «جعفر أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً»[1].

(١) أحمد بن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين والزين والأبياري، جـ ٢، ص ٤٥٥، القاهرة: ١٩٥٦. والحديث أخرجه علي المتّقي بن حسام الدين الهندي في كنز العمّال في سُنن الأقوال والأفعال، صحّحه صفوة السقا، حديث ٣٣١٩٩ و٣٧١٦٥، ط ٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥/١٩٨٥.

من خلال هذه الروايات تظهر أهمية ابن عُيينة، الذي أحبّه شيوخه، وأثنى عليه أقرانه، وتمثّل به تلاميذه فاتخذوه مثلهم الأعلى في حياتهم العلمية والعملية.

٤ ـ مجالسه وحلقاته:

لا جدال؛ أنه كانت لسفيان بن عُيينة مجالس وحلقات تغصّ بأصحاب الحديث؛ الذين كان يتراوح عددهم ما بين الألف[١] والمائة ألف رجل[٢] وذلك وفقاً للمناسبات المتوفّرة في مكة، بحيث كان يبلغ الازدحام غايته في موسم الحج وقد ثبت لدينا وبشهادة محفوظ بن أبي توبة البغدادي أنه كانت لسفيان حلقة في المسجد الحرام[٣] فكان رجال الحديث يتوافدون إليه من شتّى أقطار العالم الإسلامي، فيرتادون حلقاته بحماس شديد، ويتزاحمون إلى مجالسه لأخذ أماكنهم حتى لا يفوتهم سماع أحاديثه الحِسان، وإن هذه الظاهرة تحثّنا للبحث في بداية أمر سفيان في التحديث.

والواقع؛ أننا نجد تضارباً واضحاً في الروايات التي تتناول هذه الناحية، ففي إحدى الروايات يقول ابن عُيينة عن نفسه: «أول

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٣.

(٢) عبد الرؤوف المنادي، الكواكب الدرّيّة في تراجم السادة الصوفية، باعتناء محمود حسن ربيع، جـ ١، ص ١٧٧، القاهرة: مطبعة الأنوار، ١٣٥٧/١٩٧٨.

(٣) العيون والحدائق، جـ ٣، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

مَن أقعدني للحديث أبو حنيفة»[1]. ثم يذكر بعض التفاصيل يحدّد من خلالها السنة التي بدأ فيها ممارسة مهمته الشاقّة فيقول: «دخلت الكوفة ولم يتمّ لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: (جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار)، قال ـ سفيان ـ: فجاء الناس يسألونني عن عمرو بن دينار فأول مَن صيّرني محدّثاً أبو حنيفة»[2].

ولدينا رواية أخرى أوردها الخطيب البغدادي على لسان غياث بن جعفر الذي سمع ابن عُيينة يقول: «أول مَن أسندني إلى الأسطوانة، مِسْعر بن كِدام، فقلت له: إني حَدثٌ! فقال: إن عندك الزُّهري، وعمرو بن دينار»[3].

وواضح؛ أن سفيان كان يعجب بنفسه أثناء روايته للأحاديث فكان يقول للمشيخة الذين يحضرون مجالسه: «أنا لكم مثل جبل أبي قبيس، اصعدوا عليَّ، واطّلعوا على التابعين»[4] وكان، من

(١) ابن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، جـ ١، ص ٢٥٠، ط ١، حيدر آباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٢ (في آخره ذيل الجواهر المضية).
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٣؛ الجواهر المضية، جـ ١، ص ٢٥٠؛ عبد الله بن أسعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق عبد الله الجوري، جـ ١، ص ٤٦٢، ط ١ بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٨٤.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٦؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٠، قابل: تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩.
(٤) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١٧٧.

حين لآخر، يذكّر روّاده بأنه من أصحاب العوالي، وأن سنده يرتقي إلى ما يقارب الصحابة رضي الله عنهم، فيقول: «ما بيني وبين أصحاب النبي (ﷺ) إلّا ستر - يعني جيلا -»[1].

بالإضافة إلى ذلك، كان سفيان يعتمد في دروسه أسلوب الترغيب والترهيب، ففي بعض الأحيان كان يلفت نظر طلّابه إلى أهمية الحديث، فكان يحثّهم على أخذه، ويشوقهم للإقبال عليه، لِما في ذلك من أجْرٍ وثوابٍ عند الله عزّ وجلّ، وبالتالي يلقى صاحب الحديث القبول عند ربه بالإضافة إلى الشفاعة والغفران.

من هذا المنطلق كان يقول: «مَن طلب الحديث فقد بايع الله»[2]، وقال أيضاً: «لو أن رجلاً استقبل القِبلَة، ثم ذكر الحديث لرجوت أن لا يقوم حتى يُغفَر له»[3].

من جهة أخرى؛ كانت لابن عُيينة أقوال ومواقف تبيّن أنه كان غير راضٍ عن أخذه الحديث، وهذا هو شأن سائر المحدّثين الزاهدين الذين وجدوا أن الحديث يشغلهم عن الفرائض الدينية وسائر العبادات[4]. ودليلنا على أنه ندم لاشتغاله بالحديث ما ذكره سوار بن عبد الله فقال: سمعت ابن عُيينة يقول: «لو قيل لي لِمَ طلبت الحديث؟ ما دريت ما أقول»[5].

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٧.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٠.
(٣) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(٤) عن ذلك؛ راجع: الإمام سفيان بن سعيد الثّوري سيّد الحفّاظ، ص ٧٠، ٧٢ - ٧٣.
(٥) ثقات ابن شاهين، ص ١٥٥.

والقصة التالية تُظهِر ندم ابن عُيينة بوضوح، قال محمد بن يوسف الفِريابي: «كنت أمشي مع ابن عُيينة، فقال لي: يا محمد، ما يُزهِدني فيك إلاّ طلب الحديث، قلت: فأنت يا أبا محمد، أيّ شيء كنت تعمل إلاّ طلب الحديث؟ فقال: كنتُ إذ ذاك صبيّاً لا أعقل»(١).

وقال سفيان مرة لرجل: «ما حِرفَتَك؟ قال: طلبُ الحديث. قال: بشّر أهلك بالإفلاس»(٢).

مهما يكن من أمر، فالمُلاحَظ أن مجالس سفيان كانت تجمع بين روايـة الحديث، وبين المـواعظ والحِكَم التي لا تخلو من النصائح الاجتماعية، وإرشادات في التربية والأخلاق العامّة، وكان أحياناً يذكّر طلابه بتردّي أوضاع أصحاب الحديث، وما آلت إليه أمورهم بعد أن كانت الآمال معقودة عليهم، باعتبارهم المثل الصالح والقُدوة الخيّرة لأبناء مجتمهم. غير أنهم خيّبوا ظنّه فيهم وذلك لإقبال البعض منهم على مناصب الدولة، وبالتالي عدم كفاءة البعض الآخر لانشغالهم بأمورهم الحياتية، والبقية الباقية، لا حول لهم ولا

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٣. ويعلّق الذهبي على موقف ابن عُيينة بقوله: «إذا كان مثل هذا الإمام يقول هذه المقالة في زمن التابعين، أو بعدهم بيسير، وطلب الحديث مضبوط بالإتقان، والأخـذ عن الأثبات الأئمة، فكيف لو رأى سفيان رحمه الله طَلَبَة الحديث في وقتنا، وما هم عليه من الهنّات والتخبّط، والأخذ عن جهلة بني آدم، وتسميع ابن شَهر» (أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٤).

(٢) المصدر نفسه، جـ ٨، ص ٤٦١.

قوة فاستسلموا لقضاء الله وقدره. وهذا يعني أنه لم يعد من أمل في رجال هذه الفئة.

ولقد عبّر سفيان عن مُعاناته حينما هالَه كثرة أصحاب الحديث في مجلسه فقال لهم: «ثلاث يتبعون السلطان، وثلاث لا يفلحون، وثلاث يموتون»[1]. ثم قال متحدّياً: «شرّار العام الماضي خير من خيّاركم في هذا العام»[2].

ومما يؤكّد صحّة رأي سفيان في هؤلاء القوم، الذين عَمَتْ قلوبهم المادّة، وأنساهم حبّ الدنيا، المزايا النبيلة التي كان يتحلّى بها سلفهم الصالح، تلك الحادثة التي حصلت في مجلسه. قال يحيىٰ بن عثمان: «أتى رجل خُراساني سفيان بن عُيينة في مجلسه؛ فرمى إليه بدرهمين، فقال: (حدّثني بهما)، فهمّ به أصحاب الحديث، فقال: دعوه ثم نكص وبكى وقال:

أعمل بقولي وإن قصّرت في عملي
ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري»[3]

والمُلاحَظ، أن ابن عُيينة بدأ، في هذه الفترة المتأخّرة من حياته، يُحَضِّر نفسه للانسحاب من ساحة العطاء بسبب تردّي أوضاع

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٨.
(٢) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧؛ قابل: عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٦٢، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٦.

أصحاب الحديث، الذين أوصلوه إلى طريق مسدود، فهم غير مُهَيئين لهذا الأمر، وقد عبّر سفيان عن موقفه حين قال في مجلسه: «كنت أخرج إلى المسجد فأتصفّح الخلق، فإذا رأيت مشيخةً وكهولاً، جلست إليهم، وأنا اليوم قد اكتنفني هؤلاء الصبيان، ثم ينشد:

خَلَت الدِّيارُ فَسُدت غَيْرَ مُسَوَّد
ومَنَ الشَّقاء تَفَرُّدِي السؤدد»[1]

ثم قال متهكّماً على نفسه وعليهم: «أنا المحدّث وأنتم أصحاب الحديث!»[2]، ثم انتابته نوبة من الحزن والأسى وقال:

«أنا أحقُّ بالبكاءِ من الحُطيئة[3]، هو يبكي على الشعر، وأنا أبكي على الحديث»[4].

واستمر ابن عُيينة يعاني من تلك الأزمة الخانقة إلى أن خرج يوماً إلى مَن جاءه يسمع منه، وهو ضجر، فقال: «أليس من الشقاء

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٧ ـ ١٧٨، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٢.
(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، جـ ١، ص ٢٥١.
(٣) هو جردل بن أوس يُكنّى أبا مُليكة، ولقّب بالحطيئة لقصره وقربه من الأرض، وقد أسلم بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، انظر: الشعر والشعراء، جـ ١، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٥.
(٤) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ١٦٩.

أن أكـون جالست ضمـرة بن سعيد[1]، وجـالس هو أبـا سعيـد الخدري[2]، وجالست عمرو بن دينار، وجالس هو ابن عمـر[3] رضي الله عنهما، وجالست الزهري، وجالس هو أنس بن مالك[4]، حتى عَدَّ جماعة، ثم أنا أُجالسكم؟ فقال له حَدَثٌ في المجلس: أتنصِفُ يا أبا محمد؟ قال: إنشاء الله تعالى، فقال: والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله (ﷺ) بك أشدّ من شقائك بنا»؛ فأطرق وأنشد قول أ.ي نواس:

خــلِّ جــنــبَــكَ لــرام ... وامضِ عــنــه بــســلامِ
مُــتْ بــداء الــصَّــمت خــيــرٌ ... لــك مــن داء الــكــلامِ
إنــمــا الــســالــم مَــنْ ألـ ... ـجــم فــاه بــلــجــام

---

(١) هو ضمرة بن سعيد بن أبي حنّة، روى عن أبي سعيد الخدري، وأنس، ونملة بن أبي نملة، وعنه مالك، وابن عُيينة وغيرهما، وثّقه أحمد وابن معين والنسائي والعجلي، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ٤٦١).

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري المدني، كان من علماء الصحابة، وحديثه في الصحيحين، عاش ستّاً وثمانين سنة ومات سنة ٦٩٣/٧٤، مترجم في: (تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٤٤؛ وتاريخ بغداد، جـ ١، ص ١٨٠).

(٣) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، روى علماً جمّاً عن النبي (ﷺ) وعن الصحابة رضي الله عنهم، مات بفعلة الحجّاج بن يوسف سنة ٦٩٢/٧٣، مترجم في: (حلية الأولياء، جـ ١، ص ٢٩٢، تهذيب ابن حجر، جـ ٥، ص ٣٢٨).

(٤) أنس بن مالك الأنصاري البخاري خادم رسول الله (ﷺ)، له حديث كثير، عمّر طويلاً وكان آخر الصحابة موتاً، توفي في سنة ٧١٢/٩٣، مترجم في (تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٤٤).

فتفرّق الناس، وهم يتحدّثون برجاحة الحَدَث، وكان ذلك الحَدَث يحيىٰ بن أكثم التميمي[1]، فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء يعني الحكّام[2].

وربما لهذه الأسباب جميعها، اتخذ ابن عُيينة قراره بالابتعاد عن رجال الحديث، وبالتالي هجران مجالسه وحلقاته، وفي هذه الأثناء بدأ يميل نحو العُزلة، وتجنّب الاختلاط بجمهور الناس، وكان شِعاره في ذلك قول مساور الورّاق: «إنما تطيب المجالس بخفّة الجلساء»[3].

ولمّا باشر سفيان بتنفيذ مخططه، أخذ يتهرّب من جلسائه، ورفض الإجابة على أسئلتهم، وأحياناً كثيرة كان يمتنع حتى عن مقابلتهم، ولكن هؤلاء ما كانوا ليتركوه وشأنه، وإنما كانوا يلجأون إلى شتّى السُّبُل لإكراهه على الاستجابة لهم والجلوس معهم ورواية أحاديثه[4].

والمُلاحَظ أن مواقفه إزاء هذا الأمر كانت تتميّز بالشدّة

---

(١) هو يحيى بن أكثم القاضي، كان فقيهاً مجتهداً مصنّفاً، غلب على المأمون الخليفة العباسي حتى أخذ بمجامع قلبه وقلّده القضاء وتدبير مملكته، وكانت الوزراء لا تقوم بعمل إلاّ بعد استشارته، توفي سنة ٢٤٢/٨٥٦ مترجم في: (شذرات الذهب، جـ٢، ص١٠١).

(٢) وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٩٢.

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص٢٨٩.

(٤) عن ذلك؛ انظر: المصدر نفسه، جـ٧، ص٢٩٥؛ أعلام النبلاء، جـ٨، ص٤٦٨.

والتصلّب أحياناً وباللّين والتواضع أحياناً أُخرى، فيُروى أن القوم سألوه مرة أن يحدّثهم فقال: «ما أراكم للحديث موضعاً، ولا أراني أن يؤخذ عنّي أهلاً، وما مثلي ومثلُكُم إلّا ما قال الأول: افتضحوا فاصطلحوا»[١].

وفي مناسبة أخرى قال لجمهور المحدّثين الذين قصدوه للأخذ عنه: «إني لأغضب على نفسي إذ رأيتكم تأتوني أقول: لم يأتي هؤلاء إلّا من خير يظنّون بي»[٢].

ولكن هذه الطريقة لم تُنْجِ سفيان من إلحاح رجال الحديث عليه، فكانوا لا يتورّعون عن القيام بأعمال نابية؛ بما في ذلك النيل منه، وانتهاك حُرمته وحُرمة داره. مثال ذلك ما حدّث به سليمان بن مطر فقال:

كنّا على باب سُفيان بن عُيينة، فاستأذنّا عليه، فلم يأذن لنا، فقلنا: ادخلوا حتى نهجم عليه، قال: فكسرنا بابه، ودخلنا وهو جالسٌ، فنظر إلينا، فقال: سُبحان الله، دخلتم داري بغير إذْني، وقد حدّث الزُّهري عن سهل بن سَعد أن رجلاً اطّلعَ من جحر، من باب النبي (ﷺ)، ومع النبي (ﷺ) مِدْرَىً[٣] يحُكُّ به رأسه، فقال: «لو

---

(١) أعلام النبلا، جـ٨، ص ٤٦٧.

(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٨٥.

(٣) المَدَرُ: قطع الطين اليابس، وقيل: الطين العِلكُ الذي لا رمل فيه، واحدته مَدَرَةٌ. انظر: لسان العرب، (مادة مدر)، جـ٥، ص ١٦٢.

عَلِمت أنك تَنظُرُني، لطعنت بها في عينك»(١)، إنما جُعِل الاستئذان من أجلِ النظر»(٢).

قال: «فقلنا له: ندمنا يا أبا محمد. فقال: ندمتم؟ حدّثنا عبد الكريم الجَـزَري عن زياد - بن أبي مـريم - عن عبد الله بن معقِـل، عن عبـد الله بن مسعـود أن النبي (ﷺ) قـال: «النــدم تـوبة»(٣).

وبالمقابل؛ كان بعض رجـال الحديث على درايـة واسعة بأصول الآداب العامّة فكانوا يلجأون إلى الأسلوب الأنجع الذي يتماشى مع اللياقة الاجتماعية،واحترام العلماء وكبار المشايخ عن ذلك حدّث الحسن بن علي بن راشد الواسطي قال:

«كنّا بباب سفيان بن عُيينة - وقد خلا بالحجاب وهو يحدّثهم - نستأذن عليه فلا يؤذن لنا، فجاء محمد بن مناذر الشاعر(٤) فقال: ما لكم لا تدخلون؟ قلنا: استأذنّا فلم يؤذن لنا، فنقر الباب وأنشأ يقول:

---

(١) رواه البخاري في اللباس باب ٧٥ وفي الاستئذان باب ١١ كما رواه مسلم بن الحجّاج في صحيحه باب الأدب حديث (٢١٥٦)؛ وأحمد بن حنبل في المسند، جـ ٥، ص ٣٣٠، ٣٣٥.

(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٣.

(٣) أخرجه محمـد بن يزيـد بن ماجـه، في كتاب السُّنن، تحقيق محمـود عبد الباقي، (٤٢٥٢) في الزهد، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.

(٤) هو مولى بني يربوع، ويكنّى أبا ذَرِيع، خرج من البصرة إلى مكّة، فلم يزل بها مجاوراً إلى أن مات، وكان يجالس سفيان بن عُيينة فيسأله عن غريب الحديث ومعانيه. (الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٤٧ - ٧٤٩).

بـعـمـرو وبـالـزّهـري والـسـلف الأول
بهم ثبتت رجـلاك عنـد الـمقـام
جعلت طـوال الدهـر يومـاً لصـالـح
ويـومـاً لخـاقـان ويـومـاً لحـاتم
وللحسن التختـاخ يـومـاً ودونـهم
خصّصت حسيناً دون أهل المواسم
نـظرت فطال الفكـر فيك فلم أجـد
تـديـر رحىً إلّا لأخـذ الـدراهم

قال: «فخرج سفيان وبيده عصاً فقال: خذوه، فغدا ابن مناذر، فأدخلنا وكتبنا عنه»(١).

مهما يكن من أمر، فالثابت؛ أن مجالس ابن عُيينة لم تكن مقتصرة على صغار رجال الحديث، وإنما كانت لا تخلو من كبار الأئمة الذين اعتادوا الدخول على سفيان وحضور مجالسه أمثال: حمّاد بن زيد، ووكيع بن الجراح، وعلي بن المديني، وأبو معاوية الضرير وغيرهم.

فذكر أبو معاوية أنه كان يترك مجلس الأعمش ويقصد حلقة ابن عُيينـة(٢) وقال علي بن المـديني: «كتبت عنه الحـديث سنة اثنتين وأربعين (١٤٢/٧٥٩) وهو ابن خمس وثلاثين سنة»(٣)، وفي السنة

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٦.
(٢) تهذيب ابن حجر، جـ ١، ص ١٢١.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٥.

ذاتها كتب عنه الحديث يحيى القطّان[1]، وأما وكيع بن الجرّاح فكتب عنه الحديث سنة ٧٦٣/١٤٦[2].

ولا ريب؛ أن حديث ابن عُيينة كان قد استحوذ على إعجاب مُعاصِريه لأنه كان في غاية الحُسْن، فقد كان صاحب رواية من الطراز الأول، ويعرف كيف يختار أحاديثه الحِسان التي تشدّ قلوب وعقول الرجال. قال علي بن المديني: «كنّا في مجلس سفيان بن عُيينة فحدّث بحديث عن النبي (ﷺ)، فقال رجل: ما أحسنه!؟ فقال سفيان: ألا قلت: هو أحسن من الجوهر، أحسن من الدرّ، أحسن من الياقوت، أحسن من الدنيا كلها!»[3].

وعن حُسْن أحاديث ابن عُيينة تحدّث يحيى بن سعيد القطّان، فعندما سُئِلَ: مَن أحسن مَن رأيت حديثاً؟ قال: «ما رأيت أحداً أحسن حديثاً من سفيان بن عُيينة»[4].

وإلى جانب ذلك، فقد كان في حديثه نعومة ودلال وغنج، قال علي بن حرب: «إني كنت أُحبّ أن لي جارية في غُنج ابن عُيينة إذا حدّث»[5].

(١) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(٢) الجرح والتعديل، ص ٥٠.
(٣) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، جـ٧، ص ١٣٥، وجه ١، صورة عن مخطوط البلدية بالإسكندرية (برقم ٣٧١١ ج).
(٤) تاريخ بغداد، جـ٩، ص ١٨٢.
(٥) تذكرة الحفّاظ، جـ١، ص ٢٦٤.

فهذه هي الصورة التي انطبعت في عقول روّاد مجالس سفيان تلك المجالس الحالمة التي كانت لا تُفَوّت نظراً لأهميتها بكل ما فيها من شيوخ، وأعلام وأحاديث اتّسمت بالجودة، ونصائح وعِظات لا تخلو من مُعاناة مجرّب أضناه مجتمع عصره.

وبالنهاية، فإن الحديث عن هذه المجالس العامرة يشوقنا لمعرفة موقف ابن عُيينة من العلم بشكل عامّ ومن علم الحديث بشكل خاصّ.

٥ ـ نظرته إلى العلم:

الواضح؛ أنه كان لابن عُيينة فلسفته الخاصّة للأمور العلمية، فكان ينظر إلى ذلك بعين العارف المتبحّر، الذي سَبَرَ أغوار العلم، وخبر قضاياه بعد معاناة طويلة معه عرف من خلالها همومه وشجونه، فنتج عن ذلك كله حِكَماً ومواقف نستقّيها من أقواله التي كان يجود بها في مجالسه.

لقد كانت أُولى اهتمامات سفيان، خلال لقاءاته مع طلّابـه أن يذكّرهم بأهمية العلم الذي هو نعمة من الله أنعمها على عباده ليميّزوا، من خلالها الخير من الشرّ، ويعرفوا عن كثب ما لهم من حقـوق وما عليهم من واجبـات، وما ينتـج عن ذلك من حفظ لمصالحهم، وصوناً لكرامتهم وشرفهم، وبالتالي فهو مخلّصهم من آفة الجهل الذي يعتبر عقوبة الله لخلقه.

من هذا المنطلق بدأ سفيان بفلسفة العلم الذي هو معرفة الله، وفي يقينه مَن عرف الله فقد عرف نفسه، ومَن عرف نفسه لا يضلّ

السبيل، فقال: «أفضل العلم، العلم بالله، والعلم بأمر الله، فإذا كان العبد عالماً بالله، وعالماً بأمر الله، فقد بلغ. . .» وقال أيضاً: «لم تصل إلى العباد نعمة أفضل من العلم بالله، والعلم بأمر الله، ولم يصل إليهم عقوبة أشدّ من الجهل بالله والجهل بأمر الله»(١).

ويجد ابن عُيينة، أن لكل عالِم اختصاص محدّد في ناحية معينة من تلك العلوم، وهذا الأمر، ساعده على تصنيف العلماء، وكشف أسرارهم، وإظهار حقيقتهم لطلاب العلم،فقال: «العلماء ثلاثة: عالِم بالله، وعالِم بأمر الله، وعالم بالله وبأمر الله، فأما العالِم بأمر الله، فهو الذي يعلم السُّنّة ولا يخاف الله. وأما العالِم بالله، فهو الذي يخاف الله ولا يعلم السُّنّة. وأما العالِم بالله وبأمر الله، فهو الذي يعلم السُّنّة ويخاف الله، فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السمٰوات»(٢).

ويرى سفيان أن العلم يمرّ بمراحل عديدة قبل أن يبلغ غايته المرجوّة، فيقول: «أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»(٣). وفي رأيه، أنه لا بدّ للمرء من أن يتقن جميع هذه المراحل، ويستوعب جُلّ أبعاد تلك العلوم، حتى يتمكّن من تحقيق جانب من أمانيه وطموحاته، أما إذا أخذ علومه وتلكأ في تطبيق مبادئه ساعتئذٍ لا فرق بين العالِم والجاهل، وبين المتأدّب والسّفيه لهذا قال: «إذا كان نهاري نهار سفيه، وليلي ليل جاهل،

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٨١.

(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٨٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٧٤.

فما أصنع بالعلم الذي كتبت»[١]؟ لذلك كان متشدّداً في الشروط التي يجب أن تتوفر في طالِب العلم، ويأتي في طليعتها، سِمَة التواضع وخفض الجناح للآخرين، فقال: «لا يكون طالِب العلم عاقلاً حتى يرى نفسه دون كل المسلمين»[٢].

بالإضافة إلى ذلك، يلاحظ سفيان أن الأجيال تغيّرت عن ذي قبل، وحَمَلَة العلم يتأخّرون مع مرور الزمان فقال: «إن هذا العلم لا يخرج من وعاء قطّ، إلّا صار في دونه»[٣]. ولكي يُنَشّط سفيان الحركة العلمية، كان يلجأ، كعادته، إلى أسلوب الترغيب والترهيب، فيُروَى أنه قال لجُلسائه يوماً: «أتدرون ما مثل العلم: مثل العلم مثل دار الكفر ودار الإسلام، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد جاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جهّالاً»[٤].

من جهة أخرى يجد سفيان أن العلم ثقيل الوطأة على صاحبه، فهو أمانة تنوء تحتها الجبال، فقال: «ليس شيء في الأرض أثقل حملاً من العلم»[٥]، ولكن من المؤسف، أن العلم ورغد العيش لا يجتمعان، فكلما ازداد المرء علماً كلما ازداد فقراً وعوزاً،

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٧١.

(٢) طبقات الشعراني، جـ١، ص ٦٢.

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٨١.

(٤) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٨٢.

(٥) ثقات ابن شاهين، ص ١٥٥.

فقال: «مَن زِيدَ في عقله، نقص في رزقه»[1]، وقال أيضاً: «لا تدخل هذه المحابرُ بيتَ رجل إلاّ أشقى أهله وولده»[2].

بعـد ذلك؛ يتناول سفيان موضوع العلماء الذين هم أحوج الناس إلى العلم، لأنه لا يليق بهم الجهل، وقد عقدت عليهم الآمال في تنوير العقول والإجابة على المسائل التي تقلق مضاجع الخاصّة والعامّة من الناس، عن ذلك حدّث أحمد بن محمد بن أيوب ـ صاحب المغازي ـ فقال:

«اجتمع الناس إلى سفيان بن عُيينة فقال: (مَن أحوج الناس إلى هذا العلم؟) فسكتوا، ثم قالوا: تكلم يا أبا محمد، قال: (أحوج الناس إلى العلم العلماء، وذلك أن الجهل بهم أقبح، لأنهم غاية الناس وهم يُسألون)[3]. وقال أيضاً: «قالوا لبعض الحكماء: ما لكم أحرص الناس على طلب العلم؟ قالوا لأنّا أعمل الناس به»[4].

والعلـم بنظر سفيان هو: «الذي يعطي كل حديث حقّه»[5]، والعالِم «. . . مثل السراج، مَن جاءه اقتبس من علمه، ولا ينقُصه شيئاً؛ كما لا يَنْقُص القابِس من نُور السراج شيئاً»[6].

---

(١) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٥؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٥؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦١.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨١.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(٥) الجرح والتعديل، ج ١، ص ٤٤.
(٦) العقد الفريد، جـ ٢، ص ٢٦٤.

وفي شُرعة ابن عُيينة يأتي مصافّ العلماء بعد الأنبياء فقال: «أرفع الناس منزلة، مَن كان بين الله وعباده، وهم الأنبياء والعلماء»(١).

غير أن هذه المنزلة الرفيعة التي تبوّأها العلماء، يقابلها حسابٌ عسير، لأن الجاهل يُحاسَب بحسب جهله، والعالِم يُحاسَب بقدر علمه، وقد أشار سفيان في مجلسه إلى هذه الناحية، فروى عن الفضيل بن عِياض أنه قال: «يُغفَر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفَر للعالم ذنباً»(٢). وعقّب على ذلك بقوله: «ليس العالِم الذي يعرف الخير والشرّ، إنما العالِم الذي يعرف الخير فيتّبعه، ويعرف الشر فيتجنبه»(٣).

بعدها يتعرّض ابن عُيينة إلى العمل الصالح الذي هو ثمرة الجهود التي تُبذَل في تحصيل العلم، فقال: «العمل الصالح هو الذي لا تحبّ أن يحمدك عليه أحد إلّا الله»(٤). والعلم بالنتيجة يُطلَب من أجل العمل، فإذا لم يعمل العالِم بعلمه أصبح ضرره عليه أكثر من نفعه، لهذا قال: «ما عليك أضرّ من علم لا تعمل به»(٥)،

---

(١) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٥؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.

(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٢؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.

(٥) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.

وبهذا المعنى كرّر قوله: «العلمُ إذا لم ينفعك ضرّك»[1].

وخُلاصة القول، فإن العلم والعمل متلازمان يُكمِل أحدهما الآخر، فالواجب أن لا ندع طلب العلم من أجل العمل، ولا ندع العمل لطلب العلم، فعلى المرء أن يعمل بما يعلم بغية المحافظة على ماء وجهه. فقال: «مَن عَمِلَ بما يعلم، كفى ما لم يعلم»[2]، وأضاف قوله: «إنما أرباب العلم الذين هم أهله الذين يعملون به»[3].

وبذلك يكون سفيان قد أدّى رسالته تجاه العلم الذي وهب نفسه له، وبذل قُصارى جهده ليُبقيه متألّقاً في عيون الناس، وبالتالي ليسير الركب من خلفه في طريق العلم والعمل مما يساهم في بناء المجتمع الراقي.

---

(١) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٧؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦١؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٤٦٧.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧١.

الفصل الثالث

ابن عُيينة، وقدراته العلمية

١ ـ قدرته على حفظ الحديث وإتقانه له:

اتفقت المصادر على وصف ابن عُيينة بالحفظ والإتقان واستمساك الذاكرة، فقال ابن حبّان: «كان من الحفّاظ المتقنين»(١). وقال ابن شاهين في تاريخه: هو: «الإمام الحافظ الكبير، شيخ الإسلام»(٢). وذكره الذهبي في تذكرة الحفّاظ فقال: هو «العلاّمة الحافظ»(٣)، وأشار أيضاً في الميزان إلى قوة حفظه وتمكّنه من مادته(٤) الأمر الذي جعل الأئمة يتفقون على الاحتجاج به، والاستشهاد بأحاديثه(٥).

مهما يكن، فإن هذه الشواهد وغيرها، بالإضافة إلى أقوال الأئمة فيه تثبت مقدرته على حفظ الحديث وإتقانه له، قال علي بن

---

(١) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢٢.

(٢) تاريخ أسماء الثقات، ص ١٥٤.

(٣) جـ ١، ص ٢٦٢.

(٤) الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، جـ ٢، ص ١٧٠، ط ١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣.

(٥) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣.

المديني: «ما في أصحاب الزهري أحد، أتقن من سفيان بن عُيينة»[١]، وقال العجلي: «هو أثبت الناس في حديث الزهري»[٢]، ويشير الذهبي إلى قوّة حديثه على الرغم من صغر سنّه فيقول: «ما في أصحاب الزهري أصغر سِنّاً منه، ومع هذا فهو أثبتهم»[٣]، وبالنسبة لحديثه عن عمرو بن دينار يقول يحيىٰ بن معين: «هو أثبت الناس في عمرو بن دينار»[٤].

إلى جانب ذلك، يتحدّث الكسائي عن قلّة خطأ سفيان ثم يزكّيه بقوله: «ما رأيت أحداً يروي الحروف إلاّ وهو يخطىء فيها إلاّ ابن عُيينة»[٥]. وبشهادة محمد البخاري كان سفيان أحفظ من حمّاد بن زيد[٦]. وباعترافه هو عن نفسه، كان أحفظ لحديث عمرو بن دينار من الفقيه عبد الملك بن جُريج[٧] ومن هشيم بن بشير

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٨؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٨؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩.

(٢) تاريخ الثقات، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) ميزان الاعتدال، جـ ٢، ص ١٧٠.

(٤) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٨.

(٥) الجزري، طبقات القرّاء، جـ ١، ص ٣٠٨.

(٦) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١؛ وحمّاد بن زيد، هو أبو إسماعيل البصر: متّفق على توثيقه، حديثه في الكتب الستّة، كان ضريراً، ويحفظ حديثه كله؛ توفي سنة ١٧٩/٧٩٥. مترجم في: (تذكرة الحفّاظ، وتهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ٩).

(٧) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج: أحد الأعلام، روى عن الزهري ومجاهد وعنه القطّان والحمّادان والسفيانان، كان من أدعية العلم، وهو أول =

الواسطي[1]. فعندما اختلف هذان في حديثٍ لابن دينار قال: «أنا أحفظ لهذا منهما»[2].

ويبدو أن سفيان خرج في هذه الفترة عن صمته وأخذ يحدّث عن حفظه فقال: «قال لي زهير الجعفي: أخرج كتبك، فقلت: «أنا أحفظ من كتبي» [3]، وقال أيضاً: «ما كتبت شيئاً إلّا حفظته قبل أن أكتبه»[4].

وعن مقدرته على الحفظ تحدّث عن نفسه بحضور علي بن المديني الذي قال: «سمعت سفيان وذكر عمرو بن عبيد قال: كتبت عنه كتاباً بالله (كذا) فوهبت كتابه ابن أخي عمرو بن عبيد، ووهبت له كتاب ابن جدعان. فقيل لسفيان: لِمَ وهبته؟ قال: كنت قد حفظته ولم أرَ أني أنساه. . .»[5].

وأما بخصوص قِدَم حفظه، فقد تحدّث زهير بن معاوية الجعفي فقال: «سمعت سفيان بن عُيينة سنة اثنتين وسبعين ومائة

= مَن صنّف الكتب، وثّقه ابن سعد والعجلي وغيرهما، توفي سنة ٧٦٧/١٥٠. مترجم في: (تاريخ بغداد، جـ ١٠، ص ٤٠٠؛ وميزان الاعتدال، جـ ٢، ص ٦٥٩؛ وتهذيب ابن حجر، جـ ٦، ص ٤٠٢).

(١) هو أبو معاوية الواسطي الحافظ، سمع الزهري وعنه القطّان وشُعبة والثّوري، وثّقه العجلي وابن سعد، توفي سنة ١٨٣/ ٧٩٩، مترجم في: (تاريخ بغداد، جـ ١٤، ص ٨٥؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٤٨).

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٢.

(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.

(٤) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦١؛ قابل تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٩.

(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٧.

(١٧٢/٧٨٨) يقول: «حدّثنا أبو إسحاق ـ السبيعي ـ منذ سبعين سنة قال: حدّثنا صلة بن زفر منذ سبعين سنة قال: كنت جالساً عند عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فجاءه رجل [١].

ولقد أورد الذهبي حادثة عن يحيـى بن معين تبيّن سِعَة حفظ ابن عُيينة، فقال: «أخرج إلينا غُنْدَر[٢]، جراباً من جُراب الطَيَالِسة[٣] فيه حديث ابن عُيينة، فنظر فيه خلف المخرميّ، ونظرنا فيه على أن نصيب فيه خطأ فما أصبنا فيه خطأ. وقد كان على ودّهم أنهم يصبّوا فيه خطأ، فما أصابوا»[٤].

ولعلّ هناك بعض الطعون والمآخذ على حفظ سفيان عندما كان غلاماً قال سفيان: «ربما مازحني هشام بن حجير فيقول: يا أبا عبد الله أياماً حفظت وأنت غلام لا يُجيز شهادته، وأياماً حفظت وأنت رجل فنُجِيز لك»[٥].

---

(١) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ١٨٦.

(٢) هو محمد بن جعفر الهذلي البصري الحافظ كان من خيّار عباد الله. روى عنه شُعبة، والسفايني، وابن جُريج، وعنه أحمد، وعلي بن المديني، كان متخصّصاً في حديث شُعبة، مات سنة ١٩٣/٨٠٩. مترجم في: (تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٣٠٠؛ وتهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٩٦).

(٣) جراب الطيالسة: وهو كيس من جلد يقتنيه العلماء، والطيلس والطيلسان، فارسي معرّب وهو كساء أخضر يلبسه الخواصّ من المشايخ والعلماء وهو أصلاً من لباس العجم. «لسان العرب» (مادة طلس) جـ ٦، ص ١٢٥.

(٤) يحيـى بن معين، تاريخه، تحقيق عبـد الله حسن، جـ ٢، ص ١٩٦، بيروت: دار القلم، د.ت.

(٥) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ١٨٧.

وفي يقيني؛ إن تلك الأحاديث لم تكن مجرّد دعابة بين سفيان وأصحابه، وإنما كانت لها خلفيات بدليل ما حدّث به عثمان بن سعيد الدارمي، فقال: «سألت يحيـى بن معين قلت له: إن بعض الناس يقول سفيان بن عُيينة أثبت الناس في الزهري؟ فقال: إنما يقول ذلك مَن سمع منه، وأيّ شيء كان سفيان، إنما كان غليماً ـ يعني أيام الزهري ـ[1]..

مهما يكن من أمر، فالواضح أن موهبة الحفظ بدأت عند سفيان في سنٍّ مبكرة من حياته كما ذكرنا «فقد حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين، وكتب الحديث وهو ابن سبع، ثم برع حتى صار أوحد زمانه...»[2].

والحديث عن حفظ ابن عُيينة يقودنا للبحث عن عدد أحاديثه وعن مصنّفاته إذا ما وُجِدَت وقد تناول العجلي هذا الجانب فقال: «كان حديثه نحواً من سبعة آلاف»[3]، وأيّده في ذلك الخطيب البغدادي[4] ويزكّي الذهبي أحاديثه فيقول: «وحديثه في جميع دواوين الإسلام»[5] وذلك نظراً لجودتها وصحّتها.

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٨.
(٢) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧؛ طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.
(٣) تاريخ الثقات، ص ١٩٤ ـ ١٩٥؛ الجرح والتعديل. جـ ١، ص ٥١؛ الذهبي، العِبَر في خبر مَن عبر، تحقيق المنجد والسيّد، جـ ١، ص ٣٢٦، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٩.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٥.

وأما بالنسبة لمصنّفاته فقد تضاربت الآراء حولها، ففي حين يقول الذهبي: «إنه أتقن وجوّد، وجمع وصنّف»[١]، يعود فيقول: «لم يكن له كتب»[٢] ويؤيّده في ذلك جمهرة من المؤرّخين[٣]. وقال ابن النديم: «كان فقيهاً مجوداً، ولا كتاب له يُعرَف، وإنما كان يسمع منه له تفسير معروف»[٤] وله أيضاً «الجامع» في الحديث[٥].

وواضح؛ أن أحاديث سفيان قد جمعت فيما بعد، وقد أشار الذهبي إلى هذا الأمر، فقال: وقع لي كثيرٌ من عواليه، بل وعند عبد الرحمن سبط الحافظ السِّلَفي من عواليه جملة صالحة. منها: جزءُ ابن عُيينة، رواية المروزي عنه، وفي جزء علي بن حرب رواية العَبَّادان، وجزءان لعليّ بن حرب، رواية نافلته أبي جعفر محمد بن يحيى بن عمر الطائي، وفي «الثقفيات» وغير ذلك. وقد جمع عوالي ابن عُيينة: أبو عبد الله بن مَنده، وأبو عبد الله الحاكم، وبعدهما أبو إسحاق الحبال[٦].

---

(١) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٥٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ٨، ص ٤٥٨؛ العِبَر، جـ١، ص ٣٢٦.

(٣) تاريخ الثقات، ص ١٩٥؛ شذرات الذهب، جـ١، ص ٣٥٤؛ تهذيب النووي، ص ٢٩٠.

(٤) محمد بن النديم، كتاب الفهرست، ص ٣١٦، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

(٥) محمد بن جعفر الكتاني، الرسالة المستطرفة، ص ٤١، ط ٣، دمشق: دار الفكر، ١٣٨٣/١٩٦٤؛ الزركلي، جـ٣، ص ١٠٥.

(٦) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٦٥.

وعلى الرغم من مقدرة ابن عُيينة وحرصه على علم الحديث، فقد أُخِذَ عليه أنه كان مشهوراً بالتدليس[1]، فعمد إلى أحاديث رُفِعَت إليه من حديث الزُّهري، فحذف اسم مَن حدّثه، ودلسها، ولكن مما يشفع له، أنه كان لا يدلس إلاّ عن الثقات[2].

والمتعارف عليه أن المدلسين ينقسمون إلى قسمين، أحدهما يدلسون الإسناد[3]، وهو الحديث الذي يؤدّيه الراوي عمّن عاصره ولقيه مع أنه لم يصحّ له السماع منه، أو عمّن عاصره ولكنه لم يلقه موهماً أنه سمعه من لفظه. مثال ذلك، ما حدّث به علي بن خشرم فقال: كنّا عند سفيان بن عُيينة فقال: «قال الزهري كذا» فقيل له: أسمعت منه هذا؟ قال: «حدثني به عبد الرزّاق عن معمر عنه»[4]. فسفيان قد عاصر الزهري ولقيه، ولكنه لم يأخذ عنه فيصحّ سماعه عنه، وإنما أخذ عن عبد الرزاق، وعبد الرزاق أخذ عن معمر، ومعمر أخذ عن الزهري. فالتدليس هنا إسقاط سفيان لشيخه وإيراده

---

(١) عن موضوع التدليس بالتفصيل؛ انظر: كتابنا الإمام شُعبة بن الحجّاج الأزدي سيّد المحدّثين، ص ١٢١ وما بعدها، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣/١٩٩٢.

(٢) ميزان الاعتدال، جـ ٢، ص ١٧٠؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٢٦٥؛ الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٢٨٢.

(٣) القسم الثاني هو تدليس الشيوخ. وهو أن يصف راويه بأوصاف أعظم من حقيقته أو يسمّيه بغير كنيته، قاصداً إلى تعمية أمره وهذا القسم لا يدخل في هذه الدراسة.

(٤) ابن كثير، اختصار علوم الحديث، ص ٥٨، وبهامشه شرحه المسمّى «الباعث الحثيث» لأحمد محمد شاكر، ط ٢. القاهرة: ١٣٧٠/١٩٥١.

الحديث بصيغة توهم سماعه من الزهري مباشرة. وهذا أشدّ قسمي التـدليس وأشنعهما وأدلّهمـا على الكذب. قـال شُعبـة بن الحجّـاج: «التدليس أخو الكذب»(١).

ومن المؤسف حقّاً؛ أن يقع التدليس من مثل هذا الإمام الجليل لما وُصِفَ به من الأمانة والحفظ والضبط، ولكن قد يتلاشى أسفنا إذا علمنا أن بعض المدلسين من أئمة الحديث كانوا يجدون في تدليسهم متعة نفسية، فعندما قيل لأحد المدلسين ما يحملك على ذلك؟ فقال: «إنه أشهى شيء!»(٢).

والثابت أن ابن عُيينة يُعَدّ من رواة الصحيحين، وهذا شرف عظيم له؛ فكان والحالة هذه لا بدّ أن يهيب بأئمة الحديث إلى الدفاع عنه وعن أمثاله من رواة الصحيحين المشاهير بالتـدليس كالأعمش، وقتادة وعبد الرزاق وغيرهم(٣).

وقد دافع أئمة الحديث عن ابن عُيينة دفاعاً خاصّاً، فقبلوا تدليسه، لأنه إذا وقف أحالَ على ابن جريج ومعمر ونظرائهما. ورجّحه ابن حبّان فقال: «وهذا شيء ليس في الدنيا إلّا لسفيان بن

(١) الباعث الحثيث، ص ٥٨.
(٢) الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ص ٣٦١، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧.
(٣) محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، جـ ١، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤، ط ١، القاهرة: ١٣٦٦ هـ. السيوطي، تدريب الراوي شرح «تقريب» النووي، ص ٨٠، مصر: ١٣٠٧ هـ.

عُيينة، فإنه كان يدلس، ولا يدلس إلاّ عن ثقة متقن، ولا يكاد يوجد له خبر دلس فيه إلاّ وقد بيّن سماعه عن ثقة مثل ثقته»[١].

نخلص إلى القول: إن النقّاد قد تساهلوا في الرواية عن المشاهير من غير أن يسألوا عن سبب عدالتهم، وكان ابن عُيينة واحداً من أولئك الأعلام الذين اشتهرت عدالتهم بين أهل العلم من المحدّثين، وخصوصاً بعد أن شاع الثناء عليه، وأصبح لا يحتاج إلى تعديل المُزَكّين.

والجدير بالذكر، أنه على الرغم من تلك المقدرة التي كان يتمتع بها ابن عُيينة في الحفظ والإتقان فإن حفظه قد اضطرب في أواخر أيامه، ويشهد بذلك رباح بن خالد الكوفي، فقال: «سألتُ ابن عُيينة، فقلتُ: يا أبا محمد، إن أبا معاوية ـ الضرير ـ يتحدّث عنك بشيء ليس تحفظه اليوم، وكذلك وكيع ـ بن الجراح ـ فقال: صدقتم، فإني كنت قبل اليوم أحفظ منّي اليوم»[٢]، وعلّق على ذلك محمد بن المثنى العنبري فقال: «سمعتُ ابن عُيينة يقول ذلك لرباح، في سنة إحدى وتسعين ومئة (١٩١/٨٠٧)»[٣].

وإلى جانب تغيّر حفظ ابن عُيينة، فقد اختلط قبيل وفاته بسنة واحدة، وذلك استناداً إلى رواية محمد بن عبد الله بن عمّار الموصلي عن يحيى بن سعيد القطّان الذي صرّح بقوله: «أشهد أن

---

(١) تدريب الراوي، ص ٧٩.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٨ ـ ٤٦٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٨، ص ٤٦٠.

سفيان بن عُيينة اختلط سنة سبع وتسعين ومائة (١٩٧/٨١٢)، فمَن سمع منه فيها فسماعهُ لا شيء»[١].

وواضح أن هذه الشهادة التي أدلى بها القطّان كانت موضوع جدال بين العلماء المؤرّخين، ففي حين يقول الذهبي: «أنا أستبعدُ هذا الكلام من القطّان، وأعدّه غلطاً من ابن عمّار، فإن القطّان مات في صَفَر من سنة ثمانٍ وتسعين (١٩٨/٨١٣) وقت قدوم الحاجّ ووقت تحدّثهم عن أخبار الحجاز، فمتى تمكّن يحيى بن سعيد من أن يسمع اختلاط سفيان، ثم يشهد عليه بذلك، والموت قد نزل به»[٢]. ثم يدعم رأيه بقوله: «سمع من ابن عُيينة في سنة ٨١٢/١٩٧ محمد بن عاصم الأصبهاني صاحب الجزء العالي»[٣].

غير أن الذهبي سرعان ما يستدرك خطورة رفضه لشهادة القطّان فيقول: «... أو لعلّه علم ذلك - يعني يحيى - في وسط السنة، مع أن القطّان مُتَعَنِّت جداً - في الرجال - وابن عُيينة ثقة مطلقاً»[٤].

وقد علّق ابن حجر العسقلاني على موقف الذهبي بقوله:

---

(١) الذهبي، المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٢٦٨؛ ميزان الاعتدال، جـ ٢، ص ١٧١.
(٢) ميزان الاعتدال، جـ ٢، ص ١٧١.
(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.
(٤) المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٢٦٨.

«وهذا الذي لا يتّجه غيره لأن ابن عمّار من الأثبات المتقنين[1]، وما المانع أن يكون يحيى بن سعيد سمعه من جماعة ممّن حجّ في تلك السنة، واعتمد قولهم، وكانوا كثيراً فشهد على استفاضتهم»[2].

ثم يدعم ابن حجر موقفه بالحادثة التالية فيقول: «وقد وجدت عن يحيى بن سعيد شيئاً يصلح أن يكون سبباً لما نقله عنه ابن عمّار في حقّ ابن عُيينة، وذلك ما أورده أبو سعد بن السمعاني في ترجمة إسماعيل بن أبي صالح المؤذّن من ذيل تاريخ بغداد، بسند له قوي إلى عبد الرحمن بن بشر بن الحكم قال: «سمعت يحيى بن سعيد يقول: قلت لابن عُيينة: (كنت تكتب الحديث وتحدّث اليوم وتزيد في إسناده أو تنقص منه) فقال: عليك بالسماع الأول فإني قد سننت»[3]. وأضيف أنا بدوري الحادثة التي وقعت لابن عُيينة مع رباح بن خالد الكوفي والتي أكدها محمد بن المثنى العنبري[4].

وقد ذكر أبو معين الرازي في زيادة كتاب الإيمان لأحمد، أن هارون بن معروف قال له: «إن ابن عُيينة تغيّر أمره بآخره». وأن

---

(١) ابن عمّار من الحفّاظ المُكثِرين، كان فهماً بالحديث وعلّله رحّالاً فيه، وثّقه العجلي والنسائي والدارقطني وغيرهم. مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٢٦٥).

(٢) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢٠.

(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) انظر: ص ١٠٣، الفقرة ٣ من هذا الكتاب.

سليمان بن حرب قال له: «إن ابن عُيينة أخطأ في عامّة حديثه عن أيوب»[1].

نخلص إلى القول؛ أن جميع هـذه الأدلّـة والحِجَـج التي أدلى بها ابن حجر العسقلاني بالإضافة إلى شهادة يحيـى بن معين، تثبت، ودون أدنى شك، أن ابن عُيينة بالفعل فقد اختلط في سنة ١٩٧/٨١٢. ويقـال: إنـه بسبب تلك الحالة التي اعترته فقد منع من أن يحدّث في ذلك العام بعد أن حُصِرَ في بيته[2].

٢ ـ مُفاضلة بين ابن عُيينة ومُعاصريه:

لكي تكتمل لدينا الصورة عن تفوّق ابن عُيينة في الرواية عن شيوخه؛ لا بدّ من إجراء مقارنة بينه وبين مُعاصريه من جمهرة الفقهاء والمحدّثين؛ مع لفت النظر إلى أن مقدرة سفيان كانت تتجلّى في حديثه عن عمرو بن دينار، وعن محمد بن شهاب الزهري.

أما بالنسبة لتخصّصه في حديث ابن دينار وتفوّقه فيه على شيخيه شُعبة بن الحجّاج وسفيان الثّوري، فقد تحدّث عن ذلك عباس بن محمد فقال: «سألت يحيـى بن معين عن حديث شُعبة عن عمرو بن دينار، والثّوري عن عمرو بن دينار، وسفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار، أيّهم أعلم بحديث عمرو بن دينار؟ فقال: سفيان بن عُيينة أعلمهم بحديث عمرو بن دينار»[3].

---

(١) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٩.
(٣) تاريخ ابن معين، جـ١، ص ١٠٠، ١٠٢؛ الجرح والتعديل، جـ ٤، ص ٢٢٦.

وفي رواية أخرى يتحدّث عباس بن محمد عن مقدرة حمّاد بن زيد بالنسبة لابن عُيينة فيقول: «سمعت يحيى بن معين يقول: «أثبت الناس في عمرو بن دينار، ابن عُيينة، قلت له؛ حمّاد بن زيد؟ فقال: هو أعلم بعمرو بن دينار من حمّاد بن زيد...»[1].

ويؤكّد صحة هذه الروايات ما حدّث به عثمان بن سعيد الدارمي فقال: «سألت ابن معين فقلت له: ابن عُيينة أحبّ إليك في عمرو أو الثّوري؟ فقال: ابن عُيينة أعلم به، قلت: فابن عُيينة أحبّ إليك فيه أو حمّاد بن زيد؟ فقال: ابن عُيينة أعلم به، فقلت: فشُعبة؟ قال: وإيش روى شُعبة، إنما روى عنه نحواً من مائة حديث»[2].

ولدينا رواية لعليّ بن عبد الله يؤكّد فيها تفوّق ابن عُيينة على حمّاد بن زيد فقال:

«كنت عند سفيان بن عُيينة ومعي ابن ابن حمّاد بن زيد، فحدّث سفيان بحديث عمرو بن دينار عن طاوس في المواقيت مرسلاً، قال عليّ، فقلت له: فإن حمّاد بن زيد يقول عن ابن عباس، فقال لي سفيان: أحرج عليك بأسماء الله لما صدقت، أنا أعلم بعمرو ـ أو حمّاد بن زيد ـ فنفيت، ثم قلت، يا أبا محمد: أنت أعلم بعمرو من حمّاد بن زيد ـ وابنه حاضر ـ فلما قمت قال لي ابن

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨١.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٨٠؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩ - ١٢٠.

ابنه: عرضت جدّي حين قلت له إن حمّاد بن زيد يقول كذا وكذا»[1].

وفي نهاية هذه المفاضلة حُسِمَ الخلاف لصالح سفيان بن عُيينة فقال البخاري: «سفيان بن عُيينة أحفظ من حمّاد بن زيد»[2].

وأما بالنسبة للخلاف الحاصل في قضية المفاضلة بين ابن عُيينة والثّوري فقد أولى عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد برأيه فقال: «كان سفيان الثّوري إذا لم يرَ أصحاب الحديث أسند الأحاديث، فكنت آتي ابن عُيينة فيقول هذا خطأ، وهذا خطأ، فآتي الثّوري فيقول لي: أتيت ابن عُيينة؟، فأخبره بما قال ابن عُيينة فيقول: هو كما قال»[3].

ويشهد عبد الرحمن بن مهدي بأن ابن عُيينة يتميّز عن الثّوري في تعمّقه في القرآن وتفسيره للحديث، وجمعه له قال نعيم بن حمّاد: «قلت لعبد الرحمن بن مهدي: أين ابن عُيينة من الثوري؟ فقال: عند ابن عُيينة في معرفة القرآن وتفسير الحديث، وغوصه على حروف متفرّقة يجمعها، ما لم يكن عند الثّوري»[4].

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨١.
(٢) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣، قابل: تاريخ ابن معين، جـ ١، ص ٨٨.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨١.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٨٢؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤.

ويرى علي بن المديني أن ابن عُيينة يتفوّق على الثّوري وشُعبة في حُسْن الحديث فقال: «سفيان بن عُيينة أحسن حديثاً من سفيان وشعبة»[1]، وبشهادة بهز بن أسد كان متفوّقاً على شُعبة في جمعه للحديث فقال: «ما رأيت مثل سفيان بن عُيينة»، فقيل له: «ولا شُعبة؟ قال: ولا شُعبة»[2].

وكذلك كان عبد الرحمن بن مهدي يفضّل حديثه على حديث شُعبة سيّد المحدّثين، فقال: «كنت أسمع الحديث من ابن عُيينة، فأقوم فأسمع شُعبة يحدّث به، فلا أكتبه»[3].

غير أن هذه الاستشهادات كلها لا تنفي أن الثّوري كان أفقه من ابن عُيينة بحسب شهادة العجلي[4] وأن شُعبة بن الحجّاج هو المُجَلّي والمميّز بين الأئمة الأعلام خصوصاً في «علم الجرح والتعديل»[5].

إلى جانب ذلك، كان ابن عُيينة بنظر معاصريه يأتي بمصافّ الأعمش وأحياناً كانوا يفضّلونه على الأعمش، على الأقل في كثرة

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٠.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٨.
(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩.
(٤) ثقات العجلي، ص ١٩٣؛ عن المفاضلة بين الثّوري ومعاصريه؛ انظر: «الإمام سفيان بن سعيد الثّوري سيّد الحفّاظ»، ص ٨٣.
(٥) عن دور شُعبة في علم الجرح والتعديل؛ انظر: الإمام شُعبة بن الحجّاج، ص ١٢٥ وما بعدها.

أحاديثه. ولدينا مواقف عديدة تؤكد ذلك، فقال وكيع بن الجرّاح: «ما كتبنا عن ابن عُيينة إلّا والأعمش حيّ»[1] وقال يحيىٰ: «كتبت عن ابن عُيينـة الحديث قبـل موت الأعمش بخمس سنين»[2]. وواضح أن أبا معاوية الضرير كان في عداد هذه الفئة فصرّح بقوله: «كنّا نخرج من مجلس الأعمش فنأتي ابن عُيينة»[3] والرواية التي صرّح بها عبد الله بن داود تجعلنا نجزم بصحّة تلك المواقف. فقال: «كنّا عند الأعمش، فجاءنا إنسان فقال: (إن سفيان بن عُيينة يحدّث)، فقمنا من عند الأعمش فسمعنا منه»[4].

إلى جانب ذلك، يبيّن عبد الله بن داود أن ابن عُيينة كان متفوّقاً على الأعمش في كثرة الأحاديث فقال: «قَدِمَ علينا ابن عُيينة في حياة الأعمش، فحدّث سفيان في مجلس الأعمش بخمسين حديثاً، وكان الأعمش يحدّث سفيان بحديث، ويحـدّث سفيان بحديث. فقال الأعمش لسفيان: يا أبا محمد، نفقت السوق ترضى اثنين بواحد؟»[5] ولا أعلم إذا كان في هذه الرواية مبالغة وتحيّز إلى صفّ سفيان؟

مهما تكن الحقيقة؛ فإن الروايات التي بين أيدينا تتحدّث

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٠.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٥.
(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٠؛ وجـ ٤، ص ٢٢٧.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٥.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٧٥.

كذلك عن تفوّق ابن عُيينة على محمد بن مسلم[1] ، وعلى داود العطار[2] ، فهو أثبت منهما وأوثق، ولكنه يتقارب من جهة أخرى مع ابن جريج لأن هذا الأخير يعتبر من كبار الثقات، والرواية التالية تسلّط الأضواء على هذا الجانب.

حدّث إبراهيم بن عبيد الله بن الجنيد قال: «سُئِلَ يحيىٰ بن معين ـ وأنا أسمع ـ أيّهما أثبت في عمرو بن دينار ابن عُيينة، أو محمد بن مسلم؟ فقال: ابن عُيينة أثبت في عمرو من محمد بن مسلم الطائي وأوثق منه، وهو أثبت من داود العطّار في عمرو بن دينار وأحبّ إليّ منه»[3]. وأضاف: «هو أثبت من حمّاد بن زيد، وسفيان أكثر حديثاً منهم في عمرو، وأسند. وقيل له: وابن جريج؟ قال: جميعاً ثقة، كأنه سوّى بينهما في عمرو»[4].

أما بالنسبة لتخصّص ابن عُيينة في حديث الزهري وتفوّقه على شيوخه وأقرانه في هـذا المجال، فقـد اتفق علي بن المديني والعجلي

---

(١) هو محمد بن مسلم الطائي، وثّقه ابن معين، وابن حيّان، والعجلي وغيرهم، مترجم في: (ثقات العجلي، ص ٤١٤؛ وتهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٤٤٤).

(٢) هو داود بن عبد الرحمن العطار العبدي، أبو سليمان المكّي روى عن ابن جريج وعمرو بن دينار وعنه ابن المبارك والشافعي، وثّقه ابن معين والعجلي وذكره ابن حبّان في الثقات وتوفي سنة ١٧٥/ ٧٩١. مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ١٩٢).

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٢؛ وجـ ٤، ص ٢٢٧.

(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٢.

على أنه أثبت الناس وأتقنهم في حديث الزهري[1].

ويلاحظ بعض النقّاد أن ابن عُيينة لم يكن الوحيد المتخصّص بحديث الزهري، وإنما كان يشاطره هذا الشرف الإمام مالك بن أنس[2]. ولعلّ هذا الأمر كان موضوع جدل بين أئمة الحديث، قال الإمام أحمد: «كنت وابن المديني، فذكرنا أثبت مَن يروي عن الزهري فقال عليّ: سفيان بن عُيينة، وقلت أنا: مالك؛ فإن مالكاً أقلّ خطأً وابن عُيينة يخطىء في نحوٍ من عشرين حديثاً عن الزهري، ثم ذكرتُ ثمانية عشر منها، وقلتُ: هاتِ ما أخطأ فيه مالك، فجاء بحديثين أو ثلاثة، فرجعتُ، فإذا ما أخطأ فيه سفيان بن عُيينة أكثر من عشرين حديثاً». وأضاف أحمد مُساوياً بين الرجلين في عدد الأحاديث فقال: «وعند مالك عن الزهري، نحو من ثلاثمائة حديث، وكذا عند ابن عُيينة عنه نحو الثلاثمائة»[3].

ويؤيّد موقف ابن حنبل المؤرّخ شمس الدين الذهبي[4]، فيجد أن مالكاً لقي خلقاً لم يلْقاهم ابن عُيينة، فيقول: «وهما نظيران في الإتقان، ولكن مالكاً أجلّ وأعلى، فعنده نافع[5] وسعيد

---

(١) تذكرة الحفّاظ، جـ١، ص ٢٦٣؛ ثقات العجلي، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٦٤؛ تهذيب النووي، ص ٢٨٥.

(٣) ميزان الاعتدال، جـ٢، ص ١٧٠.

(٤) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٥٧.

(٥) هو نافع مولى ابن عمر: مدني، تابعي، متّفق على توثيقه مترجم في: تهذيب ابن حجر، جـ١٠، ص ٤١٢).

المَقْبُـري[1]» . ولكن الإمام الشـافعي يجد ابن عُيينـة أجمع لأحـاديث الأحكام من مالك فيقول: «وجدت أحاديث الأحكام كلها عند ابن عُيينة سوى ستّة أحاديث، ووجدتها كلها عند مالك سوى ثلاثين حديثاً»[2].

وهكذا بحسب شهادة هؤلاء الأئمة فقد تفوّق مالك على ابن عُيينة في حفظ أحاديث الزهري وفي سماعه لنافع والمقبري، وتفوّق ابن عُيينة على مالك في جمع أحاديث الأحكام. ولكنهما تعادلا في عـدد الأحاديث، وفي المحـافظة على علم الحجـاز لهذا قـال الشافعي، كما ذكرنا: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»[3].

والمـلاحظ؛ أن الإمـام أحمـد لم يكن يفضّـل على ابن عُيينـة الإمـام مالـك فقط وإنما كـان يقدّم عليـه أيضاً الإمـام الشـافعي. قـال محفوظ بن أبي توبة البغدادي: «رأيت أحمد بن حنبل عند الشافعي في المسجد الحرام فقلت: يا أبا عبد الله، هذا سفيان بن عُيينة في ناحية المسجد الحرام يحـدّث فقال: إن هـذا يفوت، وذاك لا يفوت»[4]. وحتى لا نكون مُجحِفين بحقّ ابن عُيينة فلعلّ المقصود من قول الإمام أحمد، هو أنه قد لا يتسنّى لهم الاجتماع بالشافعي بعد موسم الحجّ بسبب رحيله عن مكّة، وأما ابن عُيينة فهو بينهم في أيّ وقت كان لوجوده الدائم في المسجد الحرام.

(١) هو سعيد بن أبي سعيد المقبري: مدني، تابعي، ثقة، مترجم في (تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص٣١).
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٧.
(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩.
(٤) أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عبّاس، ص ٨٣، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.

مهما يكن من أمر؛ فإن يحيـى بن معين يرى، أن حديث الزهري لم يكن مقتصراً على ابن عُيينة ومالك، وإنما كان هناك جمهرة من أئمة الحديث يتقنون هذا الجانب. فقال: «أثبت الناس في الزهري: مالك، ومعمر - بن راشـد - ويونس - بن يزيـد - وعقيـل - بن خالـد الأيـلي - وشعيب بـن أبي حمـزة، وابن عُيينة»[1]. وأما يحيـى بن سعيد فيعطي الأفضلية لسفيان على معمر، وذلك استناداً إلى شهادة علي بن المديني الـذي قال ليحيـىٰ: «فمعمر أحبّ إليك، أو ابن عُيينة في الزهري؟ قال: ابن عُيينة»[2].

وبشهادة عثمان، فإن يحيـىٰ بن معين يفضّل معمراً على ابن عُيينة، فقال: قلت لابن معين: معمر أثبت في الزهري من ابن عُيينة أو صالح بن كيسان أو يونس فقال: في كل ذلك معمر»[3].

وواضح، أن ابن عُيينة كان يفتخر بين شيوخه وأقرانه بأنه صاحب اختصاص، فإلى جانب تخصّصه بالرواية عن عمرو بن دينار ومحمد بن شهاب الـزهري فقـد كان راويـة لحديث محمـد بن المنكدر، فكان يشير إلى ذلك بقوله: «ما بقي أحد أروى عن محمد بن المنكدر منّي، فقيل له: إبراهيم بن أبي يحيـىٰ؟ قال: إنما نريد أهل الصدق»[4].

---

(١) الجـرح والتعـديـل، جـ ٤، ص ٢٢٦؛ تهـذيب ابن حجـر، جـ ١١، ص ٤٥١.

(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٨؛ قابل: الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥١؛ وجـ ٤، ص ٢٢٧.

(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ١٠، ص ٢٤٤.

(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤١.

وفي نهاية هذه المفاضلة يأتي ترتيب ابن عُيينة في حُسْن المنطق بعد ابن جريج. قال عبد الرزّاق: «ما رأيتُ بعد ابن جريج مثلَ ابن عُيينة في حُسْن المنطق»(١). ويرى يحيى بن سعيد أنه فوق الجميع في حُسْن الحديث لهذا قال: «ما رأيت أحسن حديثاً من ابن عُيينة»(٢).

من جهة أخرى؛ فقد كان ابن عُيينة يتمتع بصفات جميلة ترفع من قدره وتقرّبه من القلوب الخيّرة التي تنشد المثالية وحُسن التعامل بين البشر. فمن صفاته أنه «كان يفعل ما يقول ولا يقول ما يفعل»(٣). وكان يتحلّى بالتواضع. وخفض الجناح فقال: إن الزمان الذي يحتاج الناس فيه إلى مثلنا لزمان سوء»(٤).

كذلك كان سفيان مرهف الحسّ يراعي مشاعر الآخرين، ويحبّ العطاء ليفكّ أزمة الناس، ولكن ظروفه الصعبة كانت تُعاكسه أحياناً كثيرة. قال رجل: «كنت أمشي مع سفيان بن عُيينة، إذ أتاه سائِل فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقلت: يا أبا محمد ما الذي أبكاك؟ قال: أيّ مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه؟»(٥).

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٤.

(٢) تهذيب النووي، ص ٢٨٩.

(٣) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧.

(٤) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.

(٥) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٣.

وفوق ذلك كله، فقد عُرِفَ سفيان بالإيثار ونكران الذات حتى ولو اضطره الأمر إلى التضحية بنفسه من أجل إسعاد الآخرين. فسُمِعَ، يقول: «لو هبط عليّ مَلَك من السماء فأخبرني أن الناس كلهم يدخلون الجنة، وأنا وحدي أدخل النار، لكنت بذلك راضياً»(١).

وهكذا جمع ابن عُيينة بين التفوّق العلمي، والصفات الحميدة التي مكّنته من أن يتبوّأ مركزاً مرموقاً بين مُعاصريه الذين اعترفوا بفضله وميّزوه على غيره من أئمة الحديث.

٣ ـ معرفته بنقلة الآثار وكلامه فيهم:

تتوضّح أهمية ابن عُيينة العلمية من خلال عرض معارفه المعمّقة برواة الحديث، وعلمه الثابت بمراسيل الآثار، وبالتالي مراجعته للشيوخ للوقوف على الثقات من رُواة العلم، وإلمامه بالأحاديث الصِّحاح. ولقد برع سفيان بذلك كله بعد أن أمضى حقبة مديدة من حياته، وهو يتتبّع أخبار الرجال ويطّلع على أحوالهم. فظلّ هذا دأبه حتى برز في «علم الجرح والتعديل» في وقت كان كبار أئمة الحديث يتسابقون للإحاطة بذلك العلم الذي يعتبر المِدْمَاك الأساسي لعلم الحديث.

والواقع، فإن مهمة البحث عن رجال الحديث كانت من أُولى اهتمامات ابن عُيينة، وقد لاحظ كبار الشيوخ شغفه بهذا الأمر

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

بخلاف غيره من المحدّثين. والرواية التالية تسلّط الأضواء على هذا الجانب.

حدّث شاهد عيان فقال سمعت ابن عُيينة يقول: «حضرت مجلس ابن جُريج فسمعته يقول: حدّثنا رجل عن ابن عباس، وحدّثنا رجل قال: سألتُ ابن عباس، فقلت: ينبغي أن يكون هذا حيّاً فلما كان يوم الجمعة تصفّحت الأبواب، فإذا أنا بشيخ قد دخل من ههنا ـ وأشار ابن عُيينة إلى بعض أبواب المسجد ـ فقلت له: رأيت ابن عباس؟ فقال: (نعم! سألت ابن عباس، ورأيت عبد الله بن عمر، وحدّثنا ابن عباس، وسمعت ابن عباس). قال ابن عُيينة: فسمعت منه، فجلست مع ابن جُريج، فلما قال: حدّثنا رجل قال: سمعت ابن عباس، قلت: يا أبا الوليد، حدّثنا عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس. فقال ابن جُريج: قد غصت عليه يا غوّاص!!»[1].

وبعد صراع مرير خاضه ابن عُيينة في ميدان علم الحديث، تبوّأ مرتبة رفيعة بين معاصريه، وعلى إثر ذلك أخذ يصنّف رجال الحديث، ويخلع على عُليّتهم ألقاب الشرف والتبجيل، وبالمقابل لم يتأخر في التعرّض للمتطفلين من المحدّثين، فكشف ألاعيبهم، وفضح خداعهم وراح يحذّر الناس من خطرهم على علم الحديث.

وبالعودة إلى تصنيفات ابن عُيينة للرجال، تُطالِعنا الفئة التي

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٧.

نال أفرادها مرتبة الشرف، وأول مَن تناول فيها شيخه الأجلّ محمد بن شهاب الزهري الذي قال فيه: «كان أعلم أهل المدينة»، وقال أيضاً: «لم يكن في الناس أحد أعلم بالسُّنّة منه»(1). بالإضافة إلى ذلك كان يعتبره في طليعة الفقهاء الذين عايشهم فقال: «لم أرَ من هؤلاء أفقه من الزّهري، وحمّاد ـ بن زيد ـ وقتادة ـ بن دعامة السدوسي ـ»(2). وهو أيضاً أحد المحدّثين المعدودين في بلاد الحجاز فقال: «محدّثو الحجاز ابن شهاب، ويحيىٰ بن سعيد، وابن جُريج، يجيئون بالحديث على وجهه»(3).

وأما الذين وثّقهم ابن عُيينة فيبرز في طليعتهم شيخه عمرو بن دينار الذي كان بحسب رأيه «أعلم أهل مكّة»(4)، وكان يحدّث عنه ويقول: «حدّثنا عمرو بن دينار وكان ثقة، ثقة، ثقة»(5)، وقال أيضاً: «حديثاً أسمعه من عمر وأحبّ إليّ من عشرين من غيره»(6).

ومن الذين وثّقهم أيضاً: إبراهيم بن ميسرة(7) فقال فيه: «كان

---

(1) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٢.
(2) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(3) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٤٣.
(4) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٤٩.
(5) تهذيب ابن حجر، جـ ٨، ص ٣٠.
(6) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٩
(7) إبراهيم بن ميسرة الطائفي: نزيل مكة، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة توفي سنة ١٣٢/ ٧٥٠، مترجم في (تهذيب ابن حجر، جـ ١، ص ١٧٢).

أصدق الناس وأوثقهم»[١]. ووثّق كذلك، مُطَرِّف بن طريف[٢] الذي كان شعاره: «ما يسرّني أني كذبت وأن لي الدنيا وما فيها»[٣]. ووثّق موسى بن أبي عائشة[٤]، وشعبة بن دينار الكوفي الذي كان يروي عنه الثّوري[٥]، ووثّق علقمة بن مُرثد[٦]، ومحمد بن عجلان[٧]، وقد نال لقب «ثقة خيار» كلٌّ من سليمان بن أبي المغيرة، وقعنب التميمي[٨]، وخلع على أبي إسحاق الفزاري لقب الإمامة[٩].

وأما بالنسبة للذين خلع عليهم لقب «صدوق» فمنهم:

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤١.

(٢) مُطَرِّف بن طريف الحارثي: متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، قال الشافعي: «ما كان ابن عُيينة بأحد أشدّ إعجاباً منه بمطرف» مات سنة ١٤٢/٧٥٩، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ١٠، ص ١٧٢).

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٢.

(٤) تهذيب ابن حجر، جـ ١٠، ص ٣٥٢.

(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٣، مترجم في التهذيب، جـ ٤، ص ٣٤٦.

(٦) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٤؛ وقد وثّقه العجلي والنسائي، راجع ثقات العجلي، ص ٣٤١؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ٢٧٩.

(٧) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٥؛ وثّقه العجلي، وابن معين، والإمام أحمد، وأبو حاتم والنسائي، راجع تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٣٤١.

(٨) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٤، ٤٥؛ متّفق على توثيقهما، انظر: تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ٢٢١؛ وجـ ٨، ص ٣٨٤.

(٩) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٥. له ترجمة في ثقات العجلي، ص ٥٤؛ وتاريخ البخاري، جـ ١، ص ٣٢١.

إبراهيم بن ميسرة الذي مرّ ذكره، والوليد بن كثير[1]، وكان محمد بن المنكدر ومِسْعر بن كِدام «من معادن الصدق»[2]. والأميران عنده هما: عبد الملك بن سعيد بن أبجر ومطرف بن طريف[3].

بعد ذلك يتناول ابن عُيينة فريقاً من الحفّاظ؛ فيُثني على علمهم وتمكّنهم من الحفظ والاتقان واستمساك الذاكرة، ثم يذكر أسماء البعض منهم مثال: سعيد بن بشير[4]، وروح بن القاسم[5]، ويوسف بن إسحاق[6]، وعبد الله بن طاوس، وإبراهيم بن ميسرة[7].

وبالمقابل؛ كان سفيان لا يحمد حفظ ليث بن سليم[8]،

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٧؛ ذكره ابن حبّان في الثقات ومترجم في تهذيب ابن حجر، جـ ١١، ص ١٤٧.

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٢، ٤٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٤٧٤؛ وجـ ١٠، ص ١١٤.

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٦، ذكرهما العجلي في الثقات، ص ٣٠٧، ٤٣١.

(٤) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ٩.

(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٦؛ قابل: تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ١٨٨.

(٦) تهذيب ابن حجر، جـ ١١، ص ٤٠٩.

(٧) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٨.

(٨) المصدر نفسه؛ جـ ١، ص ٤٥.

وعبد الله بن محمد بن عقيل[1]، فقال فيه: «كان ابن عقيل في حفظه شيء فكرهت أن ألقاه»[2]. وعن أبي سفيان، طلحة بن نافع، قال: «حديث أبي سفيان عن جابر إنما هي صحيفة»[3].

بالإضافة إلى ذلك؛ فقد عايش ابن عُيينة فريقاً من الأئمة الأعلام فكان يفتخر في مجالسه بأنه رآهم وأخذ عنهم العلم من هؤلاء: الإمام أيوب السختياني فقال فيه: «ما رأيت مثل أيوب»[4]، وقال عن الحكم بن أبّان: «أتيت عدن فلم أرَ مثل الحكم بن أبّان»[5]، وقال لأحد جلسائه بخصوص عبد الملك بن أبجر: «حدّثنا مَن لم تَعر عيناك مثله ابن أبجر»[6]. وعن عثمان بن زائدة قال: «ما جاءنا من العراق أفضل من عثمان بن زائدة»[7]. وقال: «لم يكن عندنا قرشيين مثل أيوب بن موسى وإسماعيل بن أميّة»[8]. وفي أهل الكوفة قال: «ما كان بالكوفة بعد عربيين

(١) هو ابن عقيل بن أبي طالب، كان حسن الحديث احتجّ به أحمد وإسحاق، وقال أبو حاتم وغيره: «ليّن الحديث» عن سيرته؛ انظر: الذهبي، المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٣٥٤. الجرح والتعديل، جـ ٥، ص ١٥٣.
(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٠.
(٣) المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٣١٧؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٥، ص ٢٧.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠٧.
(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٩.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣٥٢.
(٧) تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ١١٥.
(٨) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٧؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ٤١٣.

إبراهيم والشعبي[1] مثل موليين الحكم وحمّاد[2]»[3].

وهناك فريق من المحدّثين قد نالوا إعجابه، فكان يذكرهم بالخير، ويدلّ رجال الحديث عليهم، ويحثّهم للأخذ عنهم، من هؤلاء: عبد الله بن أبي لبيد[4] الذي بعث إليه بعمر بن سعيد ليسمع منه[5]. وكان يدلّ أيضاً على زهير بن معاوية، فقال لأحد جلسائه: «عليك بزهير بن معاوية[6] فما بالكوفة مثله»[7].

بعد ذلك؛ تعرّض ابن عُيينة إلى الفريق الآخر من المحدّثين الذين ليسوا أهلاً للتحديث، فأظهر ضعفهم في الحفظ والإتقان وشهّر بهم بين أصحاب الحديث حتى لا يتخذوهم قدوة لهم، ويسيروا وفق نهجهم، فيضلّون الطريق ويصبحون عالة بل خطراً على الحديث وأهله.

---

(١) هما إبراهيم النخعي وعامر بن شراحيل، مترجمان في تذكرة الحفّاظ للذهبي، جـ ١، ص ٧٣، ٧٩.

(٢) هما الحكم بن عُتيبة وحمّاد بن أبي سلمان مترجمان في طبقات الحفّاظ للسيوطي، ص ٥١، ٥٥.

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٨.

(٤) هو أبو المغيرة المدني، وثّقه ابن معين والعجلي، ولكنه رُمِيَ بالقدر، مترجم في: (تاريخ البخاري، جـ ٥، ص ١٨٣، تهذيب ابن حجر، جـ ٥، ص ٣٧٢).

(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٧.

(٦) هو أبو خيثمة الكوفي، الحافظ الحجّة، أحد معادن الصدق، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في: (تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٣٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ٣٥١).

(٧) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٩.

(٧)

وواضح؛ أن سفيان كان يضعّف أبا الزبير، محمد بن مسلم المكّي(١)، وعمرو بن شعيب(٢)، وعقبة بن وهب البكائي(٣)، وعبد الأعلى التيمي(٤)، والحسن بن دينار(٥)، وليث بن أبي سليم(٦).

---

(١) متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة. والملاحظ أن مواقف ابن عُيينة كانت متقلّبة إزاء هذا الرجل، ففي حين يضعّفه في الجرح والتعديل (جـ ١، ص ٤٢) فيعود ليقول فيه: «كان أبو الزبير عندنا بمنزلة خبز الشعير إذا لم نجد عمرو بن دينار ذهبنا إليه». تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ٤٤٣.

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٦. والملاحظ، أنه وثّقه العجلي والنسائي، واحتجّ بحديثه الإمام أحمد، وابن المديني وابن راهويه وغيرهم، وضعّفه العقيلي وابن حبّان. راجع: تاريخ البخاري، جـ ٦، ص ٣٤٢؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٨، ص ٤٨ وما بعدها.

(٣) ضعّفه ابن عُيينة وعلي بن المديني وقال ابن معين صالح وذكره ابن حبّان في الثقات، عنه انظر: الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٩؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ٢٥٢.

(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٩؛ وجـ ٣، ص ٢٨؛ تاريخ البخاري، جـ ٦، ص ٧٢.

(٥) اجمع الذين تكلموا في الرجال على ضعفه، وتركه أحمد والنسائي ووكيع وابن المبارك، قال الذهبي في المغني: «تركوه»، جـ ١، ص ١٥٨؛ الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٤؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٢، ص ٢٧٥.

(٦) قال ابن معين وابن سعد وابن أبي حاتم «ضعيف»، وقال أحمد وأبو زرعة: «مضطرب الحديث». (تهذيب ابن حجر، جـ ٨، ص ٤٦٧ - ٤٦٨)، ولكن ابن شاهين يقول عنه: «ثقة، صدوق، وليس بحجّة» (تاريخ الثقات، ص ٢٧٥).

كذلك ترك السّماع والرواية عن جماعة تشكّك في صحة سماعهم، لأنهم مطعونين في حفظهم ومُتّهمين في عقيدتهم من هؤلاء: إسماعيل بن سُمَيع النخعي(1)، فقال فيه: «كان بيهسياً(2) فلم أذهب إليه، ولم أقربه»(3). وقال عن عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي(4): «كان قدرياً فنفاه أهل المدينة فجاءنا هٰهنا... فلم نجالسه»(5). وبخصوص سماعه عن الحسن بن عُمارة الكوفي(6)

---

(1) كان يرى رأي الخوارج، كتب عنه جرير بن عبد الحميد ثم تركه كما تركه زائدة لمذهبه، ولكن وثّقه أحمد وابن معين وابن أبي مريم والعجلي. المغني في الضعفاء، جـ١، ص ٨٢؛ تهذيب ابن حجر، جـ١، ص ٣٠٥.

(2) البيهسية: طائفة من الخوارج ينسبون إلى أبي بيهس، وهو رأس فرقة من طوائف الخوارج من الصفرية، وكان ابن سُميع موافق لهم في وجوب الخروج عن أئمة الجور، وكلّ مَن لا يعتقد معتقدهم عندهم كافر، لكن خالفهم بأنه يقول إن صاحب الكبيرة لا يكفر إلّا إذا رفع إلى الإمام فأُقيم عليه الحدّ فإنه حينئذ يحكم بكفره. تهذيب ابن حجر، جـ١، ص ٣٠٥.

(3) الجرح والتعديل، جـ١، ص ٤٧؛ تهذيب ابن حجر، جـ١، ص ٣٠٥.

(4) ذكره العجلي في «الثقات» وقال فيه: «ضعيف، جائز الحديث» (ص ٢٨٧ - ٢٨٨) وقال أحمد: «هو منكر الحديث»، (تاريخ البخاري، جـ٥، ص ٢٥٩).

(5) الجرح والتعديل، جـ١، ص ٤٧.

(6) قال الذهبي في المغني: «الحسن بن عُمارة، متروك عندهم»، (جـ١، ص ١٦٥)، وقال ابن المبارك: جرحه عندي سفيان وشُعبة فبقولهما تركت حديثه». كما تركه الإمام أحمد والنسائي والدارقطني وغيرهم. (تهذيب ابن حجر، جـ٢، ص ٣٠٥ - ٣٠٦).

قال: «كنت إذا سمعت الحسن بن عُمارة يروي عن الزهري وعمرو بن دينار جعلت أصبعي في أذني»[1].

ولدينا رواية تُظهِر حرص ابن عُيينة على رواية الحديث عن الثقات، وتركه الرواية عن الضعفاء، وعن الذين تغيّر حفظهم لسبب أو لآخر، عن ذلك حدّث ذؤيب بن عمرو السهمي المديني قال: «سألت سفيان بن عُيينة هل سمعت من صالح مولى التوءمة[2] شيئاً؟ قال: نعم هكذ وهكذا وهكذا، وأشار بيده ـ يعني يكثره ـ سمعت منه ولُعابه يسيل ـ يعني من الكبر ـ وما علمت أحداً من أصحابنا يحدّث عنه لا مالك بن أنس ولا غيره» وقد علّق ابن أبي حاتم على ذلك بقوله: «فقد بانَ أن ابن عُيينة منتقداً لرُواة الآثار. فإني لا أعلمه روى عن صالح مولى التوءمة شيئاً»[3].

وحدّث علي بن المديني قال: «سمعت سفيان يقول: جئت إلى صالح مولى التوءمة فسألته: كيف سمعت أبا هريرة؟ وكيف سمعت ابن عباس؟ فقالوا إنه قد اختلط، فتركته»[4].

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٤؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٢، ص ٣٠٧.
(٢) هو صالح بن نبهان مولى التوءمة، تابعي صدوق، لكنه عُمِر واختلط، وثّقه يحيـى بن معين والعجلي، وقال مالك وأبو زرعة والنسائي: ضعيف ودعا إلى تركه شُعبة وابن حبّان عن سيرته؛ انظر المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٣٠٥، تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.
(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٥.
(٤) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٤٦.

ومن شدّة حرص ابن عُيينة على علم الحديث واهتمامه الزائد بناقلة الآثار، فقد كان شغله الشاغل البحث عن الثقات والسؤال عن المُتقِنين، ويتّضح هذا الجانب من خلال حديثه عن مِسعر بن كدام، قال سفيان: قلت لمِسعَر: «مَن أثبت مَن أدركت؟ قال: ما رأيت أثبت من عمرو بن دينار والقاسم بن عبد الرحمن ـ يعني ابن عبد الله بن مسعود ـ» وقد علّق ابن أبي حاتم على ذلك بقوله: «هذا لعناية ابن عُيينة بناقلة الآثار، سأل مِسعَراً عن أثبت مَن أدركه»[1]، ولعلّه كان يتشدّد أحياناً في السؤال عن الأحاديث الصِّحاح، فسُمِعَ يقول: «ذهبت إلى زياد بن علاقة[2]، فسألته عن الأحاديث فقال: ويحك ما تريد منّي؟»[3].

ومما يدلّ على جودة أخذ ابن عُيينة للحديث ما رواه علي بن المديني فقال: سمعت سفيان يقول: «كان أيوب ـ بن موسى ـ إذا حدّثني بالحديث ردّدته مرتين»، وهذا غاية الحرص؛ خصوصاً وأن أيوباً يُعَدّ من كبار الفقهاء ومُتّفق على توثيقه[4].

وواضح أن تصنيفات ابن عُيينة للأئمة المحدّثين كانت مبنية على علم ودراية بأحوال الرجال، وإلمام واسع بتاريخهم وجغرافيتهم

---

(١) الجرح والتعديل، جـ١، ص ٤٦؛ تهذيب ابن حجر، جـ٨، ص ٣٠.
(٢) هو أبو مالك الكوفي، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ٣، ص ٣٨٠).
(٣) الجرح والتعديل، جـ١، ص ٣٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ٥٤.

وهذه المعارف تعتبر من أهم الشروط الواجب توفّرها في النقّاد.

وبالعودة إلى مصادر الجرح والتعديل؛ نتبيّن بقدرة ابن عُيينة في معرفة أحوال الرجال، وقدراتهم العلمية، ومجالات اختصاصهم، ومن هذا المنطلق كان يرشد طلاب الحديث إلى السّماع عن هذا المحدّث أو ذاك، وبالتالي يحدّد لهم وجهة الاستفادة من كلٍّ منهم. مثال ذلك، عندما ذكر في حلقته بقيّة بن الوليد قال: «لا تسمعوا من بقيّة ما كان في سُنَّة، واسمعوا منه ما كان في ثواب وغيره»[1]. وفي اختصاص أيوب السختياني قال: «ومَن كان أطلب لحديث نافع[2] وأعلم به من أيوب»[3]. وعن هشام بن حسّان قال: «كان هشام أعلم الناس بحديث الحسن ـ البصري ـ». وقال أيضاً: «لقد أتى هشام أمراً عظيماً بروايته عن الحسن، قيل لنُعَيم ـ بن حمّاد ـ لِمَ؟ قال: لأنه كان صغيراً»[4].

وعندما سُئِل عن الشيوخ المتخصّصين بحديث عائشة قال: «أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة؛ القاسم بن محمد، وعروة بن

---

(١) تهذيب ابن حجر، جـ ١، ص ٤٧٤؛ المغني، جـ ١، ص ١٠٩.
(٢) هو نافع بن عاصم بن عُروة بن مسعود الثقفي: تابعي، وثّقه العجلي، وذكره ابن حبّان في الثقات. (ثقات العجلي، ص ٤٤٧؛ تهذيب ابن حجر، جـ ١٠، ص ٤٠٥).
(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤١.
(٤) تهذيب ابن حجر، جـ ١، ص ٣٤ ـ ٣٥.

الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن»[1]. بالإضافة إلى ذلك كان على علم بأسماء شيوخ كبار المحدّثين فعندما سُئِلَ عن شيوخ زياد بن علاقة قال: «لم نلقَ أحداً لقي مثل ما لِقي زياد، لقي المغيرة بن شُعبة، ولقي جرير بن عبد الله، ولقي أُسامة بن شريك، ولقي قُطبة بن مالك»[2]. ولمّا سُئِلَ عن إسماعيل بن أُميّة[3] وأيوب بن موسى قال: كان أيوب أفقههما في الفُتيا في البيوع والأمور، وكنت لإسماعيل بن أُمية أطول مجالسة»[4].

وحدّث علي بن المديني قال: «قلت لسفيان: كان شرحبيل بن سعد[5] يفتي؟ قال: نعم، ولم يكن بالمدينة أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه فاحتاج فكأنهم اتّهموه»[6]، وتحدّث عن علم مالك ونقده للرجال فقال: «ما كان أشدّ انتقاد مالك للرجال وأعلمه بشأنهم»[7].

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٣٧؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ٣٨٠.
(٣) قال ابن شاهين: «إذا حدّث إسماعيل بن أُميّة عن الثقات فهو ثقة». (تاريخ أسماء الثقات، ص ٥٠).
(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٨.
(٥) اتّهمه ابن أبي ذئب، وضعّفه الدارقطني. (المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٢٩٦).
(٦) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ٣٢١.
(٧) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٧.

ويظهر؛ أن سفيان كان يعلم الكثير عن سماع رجال الحديث، بدليل أنه كان يُدلي بمعلومات قيّمة تتعلّق بإمكانية سماع كبار أئمة الحديث من النبي (ﷺ)، أو استحالة هذا الأمر بسبب الفارق الزمني أو البُعد الجغرافي اللذين كانا يحولان دون ذلك. من هذا المنطلق كان يُنكر أن يكون جدّ طلحة بن مصرف لقي النبي (ﷺ)، فعندما قيل له: إن ليثاً روى عن طلحة بن مصرف عن أبيه عن جدّه أن النبي (ﷺ) توضأ؟ فأنكر ذاك سفيان، وعجب منه أن يكون جدّ طلحة لقي النبي (ﷺ)[١]. وينكر كذلك أن يكون زكريا بن إسحاق المكّي جالس عطاء[٢]. ولمّا سأله علي بن المديني: «كان ـ محمد ـ بن إسحاق جالس فاطمة بنت المنذر[٣]؟ قال: «أخبرني ابن إسحاق أنها حدّثته وأنه دخل عليها»[٤].

وأما بالنسبة لمعرفة ابن عُيينة بعلم الأنساب وتأريخ المحدّثين وجغرافيتهم ـ أي مواطنهم ورحلاتهم ـ فقد توضح ذلك من خلال أقواله في أئمة الحديث.

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٣٩، تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ٣٢٩.
(٣) هى فاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوّام الأسدية؛ رَوَت عن جدّتها أسماء بنت أبي بكر وأُمّ سلمة زوج النبي (ﷺ)، قال العجلي، مدنية تابعية ثقة، (ثقات العجلي، ص ٥٢٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ١٢، ص ٤٤٤).
(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٨.

فعن علمه بتاريخ عمرو بن دينار قال: «كان عمرو بن دينار أكبر من الزهري، سمع من جابر(١)، والزهري لم يسمع منه»(٢). وعن إسماعيل بن أبي خالد(٣) قال: «طلب ابن أبي خالد الحديث قبل الأعمش بسنتين، قيل لسفيان: فمنصور طلب الحديث قبل الأعمش؟ قال: متقاربين»(٤).

بعد ذلك تناول أنساب بعض الرجال وأعمارهم فقال: «كان عُمارة بن القَعْقَاع(٥) ابن أخي عبد الله بن شبرمة وكان أسنّ منه وأقرأ للقرآن منه» وقال أيضاً: «كان عبد الله بن عيسى(٦) ابن أخي محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وكان أسنّ منه»(٧).

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، من أصحاب النبي (ﷺ). (ثقات العجلي، ص ٩٣).

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٩؛ إعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٢.

(٣) تابعي، سمع من خمسة من أصحاب النبي (ﷺ)، وكان حديثه نحواً من خمسمائة، متّفق على توثيقه، مترجم في «ثقات العجلي» (ص ٦٤)؛ تهذيب ابن حجر، ج ١، (ص ٢٩١).

(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٧.

(٥) متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في (تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ٤٢٣).

(٦) وثّقه النسائي والعجلي، وقال الحاكم: «هو واثق آل أبي ليلى»، وقال علي بن المديني: «هو عندي منكر الحديث»، وقال الدارقطني: «متروك الحديث». المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ٣٥٠. تهذيب ابن حجر، جـ ٥، ص ٣٥٢.

(٧) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٩؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ٤٢٤.

وظهرت قدرة ابن عُيينة في الأنساب عندما تحدّث عن عمّات النبي (ﷺ) وعن جدّته وتسميته للفواطم[1]، فعن ذلك قال: «عمّات النبي (ﷺ) بنات عبد المطّلب: عاتكة، وأُمّ حكيم وهي البيضاء وهي توأم عبد الله، وصفيّة وهي أُمّ الزبير، وبَرّة، وأميمة»[2]. وعن الفواطم قال: «ابنا الفواطم، إحداها جدّة النبي (ﷺ) أُمّ أبيه اسمها: فاطمة بنت عبد الله بن عمرو بن عمران بن مخزوم، وأُمّ علي فاطمة بنت أسد بن هاشم، وأُمّ حسن وحسين فاطمة بنت رسول الله (ﷺ)، فلذلك سُمّيا ابنا الفواطم»[3].

بعد ذلك، ذكر سفيان معلومات ذات أهمية جمع فيها بين معرفته بالأنساب وإلمامه بمواطن الرجال. فعندما تحدّث عن بني أعين قال: «كانوا ثلاثة أخوة عبد الملك بن أعين[4]، وحُمران بن

(١) عن الفواطم؛ انظر: الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٣٣.

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١ ص ٥٣. أما عاتكة بنت عبد المطلب فكانت عند أبي أميّة بن المغيرة، والبيضاء كانت عند كريز بن ربيعة، وصفيّة عند الحارث بن حرب بن أُميّة ثم خلف عليها العوّام بن خويلد، وكانت بَرّة عند عبد الأسد بن هلال المخزومي، وكانت أُميمة عند جحش رئاب الأسدي، (ابن قتيبة، المعارف، ص ٧٧). وأما اسم جدّة النبي (ﷺ) فإذا صحّت رواية ابن أبي حاتم فقد وهم ابن عُيينة لأن اسم جدّته (ص) هي فاطمة بنت عمرو بن عايذ بن عمران بن مخزوم المخزومية (الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٣٣).

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٣، ٥٤.

(٤) روى عن أبي وائل وعنه الثّوري وابن عُيينة. قال ابن معين: «ليس بشيء». قال أبو حاتم: هو «... من عتق الشيعة محلة الصدق، صالح الحديث». (الجرح والتعديل، جـ ٥، ص ٣٤٣).

أعين[1]، وزرارة بن أعين[2]، وكانوا شيعة»[3]، ولمّا سأله علي بن المديني عن موطن آل حنين قال: «إبراهيم بن عبد الله بن حنين[4]، وعبيد بن حنين[5]، ومحمد بن حنين[6]، من أهل المدينة موالي آل العباس، فقال علي: وعتاب بن حنين[7]؟ قال: لا، هذا مكّي»[8]. وسأله علي أيضاً: «كان صدقة بن يسار كوفياً[9]؟ قال: كان أصله كوفياً[10].

(١) كوفي - تابعي، مولى بني شيبان، قال النسائي: «ليس بثقة» وقال أبو حاتم: «شيخ صالح» وذكره ابن حبّان في الثقات. وقال ابن عديّ: «ليس بالساقط» وقال أحمد: «كان يتشيّع هو وأخوه». (المغني في الضعفاء، جـ ١، ص ١٩١، تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ٢٥).

(٢) ذكره الذهبي في المغني فقال: «كوفي فيه رفضٌ بيّنٌ». (جـ ١، ص ٢٣٨).

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٧.

(٤) روى عن أبيه عبد الله بن حنين الهاشمي المدني، مولى العباس ويقال مولى علي. انظر: تهذيب ابن حجر. جـ ١، ص ١١٧؛ وجـ ٥، ص ١٩٣.

(٥) مدني، مولى آل زيد بن الخطاب. (الجرح والتعديل، جـ ٥، ص ٤٠٤). «وذكر ابن حجر أنه وقع عند مسلم من رواية ابن عُيينة عبيد بن حنين مولى العباس، وقد خطّأه البخاري في ذلك وقال: «لا يصحّ قوله مولى العباس». تهذيب التهذيب، جـ ٧، ص ٦٣.

(٦) هو أخو عبيد بن حسين روى عن ابن عباس وعنه عمرو بن دينار. (تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ١٣٦).

(٧) يقال: ابن أبي حنين المكّي، روى عن أبي سعيد الخدري وعنه عمرو بن دينار، ذكره ابن حبّان في الثقات. (تهذيب ابن حجر، جـ ٧، ص ٩١).

(٨) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٨.

(٩) سكن مكة، ومتّفق على توثيقه، تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ٤١٩.

(١٠) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٨؛ وجـ ٤، ص ٤٢٨.

عن موطن زياد بن سعد[1] قال: «كان زياد بن سعد من أهل خراسان، وكان يسكن المدينة، وكان عالماً بحديث الزّهري»[2].

وبعد التحقيق في صحة تلك المعلومات تبيّن لنا صحتها باستثناء ما صرّح به ابن عُيينة بخصوص عبيد بن حنين الذي اتفقت حوله المصادر على أنه مولى آل زيد بن الخطاب وليس مولى آل العباس.

ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من تلك المكانة الرفيعة التي بلغها ابن عُيينة في ميدان علم الحديث ورجاله فقد ثبت أنه كان له هفوات لم يرضَ عنها أئمة النقّاد، ويأتي في طليعة المعترضين على ذلك أبو حاتم الرازي. فقد حدّث عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: «كان ابن عُيينة يقدّم الأحوص بن حكيم[3]

---

(١) هو زياد بن سعد الخراساني، متّفق على توثيقه، قال مالك: «حدّثنا زياد بن سعد وكان ثقة من أهل خراسان سكن مكة، قَدِمَ علينا المدينة وله هيئة وصلاح» مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٣، ص ٣٧٠).

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤٠.

(٣) ذكر البخاري عن علي بن المديني أن ابن عُيينة كان يفضّل الأحوص على ثور في الحديث، وأما يحيى بن سعيد فلم يروَ عنه. وكان يقول: «هو محتمل»، ووثّقه علي بن المديني، وقال العجلي: «لا بأس به»، وضعّفه النسائي، وقال أبو حاتم: «ليس بقوي»، وقال ابن معين: «لا شيء». (ثقات العجلي، ص ٥٨. المغني، جـ ١، ص ٦٤، تهذيب ابن حجر، جـ ١، ص ١٩٢).

على ثور في الحديث»، وأضاف قائلاً: «غلط ابن عُيينة، الأحوص منكر الحديث، وثور صدوق»[1].

فهذه المعلومات التي أدلى بها سفيان؛ تبيّن عن كثب أنه كان عالماً بحقّ، ومُلِمّاً بأحوال الرجال، ومما يرفع من أهميته العلمية؛ أن جُلّ ما صرّح به عن رجال الحديث، جاءت متقاربة وإلى حدٍّ كبير، مع ما ذكرته المصادر الموثوقة. ولعلّ أفضل ما نختم به هذا الفصل هو الحديث عن إمامة سفيان وتضلّعه بالأمور الفقهية.

٤ ـ إمامته ومقدرته الفقهية:

اتّفق أئمة الحديث ورجال التاريخ على الاعتراف بإمامة ابن عُيينة وجلالته وعظم مرتبته، فهو «أحد أئمة الإسلام»[2]، وهو أيضاً «الإمام الأمين»[3] وبرأي ابن العماد هو «الإمـام العَلَم ومحدّث الحرم»[4].

بالإضافة إلى ذلك؛ نجد فريقاً من المؤرّخين لم يقفوا عند حدّ وصف سفيـان بالإمـامة، ولكنهم أقـرّوا بفضله واعتبـروه حجّـة المسلمين، فقال الذهبي ومن بعده ابن حجر العسقلاني: «كان إماماً حجّة... واسع العلم كبير القدر»[5]. وقال ابن خلّكان: «كان إماماً

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٤١ ـ ٤٢، جـ ٢، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.
(٢) الخزرجي، ص ١٢٣؛ السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٢٣٨.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٠؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧.
(٤) شذرات الذهب، جـ ١، ص ٣٥٤.
(٥) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣؛ تقريب التهذيب، بعناية محمد عوامة، ص ٢٤٥، حلب: دار الرشيد.

عالِماً ثَبْتاً حُجّة. . .»[١]. وقال الصفدي: «سفيان حُجّة مطلقاً بالإجماع من أرباب الصحيح»[٢].

مهما يكن من أمر؛ ففي يقين سفيان أن الإمام القدوة هو العالِم الورع الذي يأخذ ممّن سبقه حِكمَة الحياة ونِتاج تجاربهم، وبالتالي يقدّمها خالص نقيّة لمَن بعده من أبناء الأمة. فسمعه إسحاق بن إسرائيل يقول: «إذا كان يأتّم بمَن قبله، فهو إمامٌ لمَن بعده»[٣].

وعلى الرغم من ذلك؛ فلعلّ بعض أئمة الحديث كانوا غير متيقنين من إمامة سفيان بدليل أنهم كانوا يسألون عن صحّة إمامته. قال عليّ بن المديني: قلت ليحيى بن سعيد: «يا أبا سعيد؛ سفيان إمام في الحديث؟ قال: سفيان إمام القوم منذ أربعين سنة»[٤].

وتأكيداً لصحّة قول يحيى بن سعيد؛ فقد وثّقه النقّاد وأشادوا بأهميته الفقهية، فقال أبو حاتم الرازي: «كان ابن عُيينة إماماً ثقة»[٥]. وقال ابن حجر: «هو الحافظ الفقيه»[٦]، وبشهادة ابن

---

(١) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩١؛ اليافعي، مرآة الجنان، جـ ١، ص ٤٦٢.
(٢) الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٢٨١.
(٣) ابن شاهين، تاريخ أسماء الثقات، ص ١٥٥.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٠؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩؛ تهذيب النووي، ص ٢٨٨.
(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٢.
(٦) تقريب التهذيب، ص ٢٤٥.

النديم «كان فقيهاً مَجُوداً»(١).

وهكذا؛ ثبت لدينا أن سفيان بن عُيينة هو إمام في الحديث وحُجّة بين علماء زمانه وفوق ذلك مُتّفق على توثيقه، فقد وثّقه، إضافة إلى أبي حاتم، كلٌ من ابن سعد فقال: «كان ثقة ثَبْتاً كثير الحديث حُجّة»(٢). وقال فيه العجلي: «كوفيّ، ثقة، ثَبْت في الحديث»(٣). كذلك وثّقه يحيى بن معين(٤). وبشهادة عبد الرزّاق فقد وثّقه معمر بن راشد فقال: «حدّثت معمراً بحديث عن سفيان بن عُيينة فقال: «إن صاحبك لثقة»(٥).

وأما عبد الرحمن بن يوسف بن خراش فيزيد في تزكيته فيقول: «سفيان بن عُيينة كان ثقةً صدوقاً»(٦). وفي مناسبة أخرى يقول: «ثقة مأمون ثَبْت»(٧).

وأخيراً يأتي ثناء اللالكائي فيقول: «هو مستغني عن التزكية لتثبّته وإتقانه، وأجمع الحفّاظ أنه أثبت الناس في عمرو بن دينار»(٨).

---

(١) الفهرست، ص ٣١٦.

(٢) الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٤٩٨.

(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٩.

(٤) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٢.

(٥) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٦) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٣.

(٧) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.

(٨) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١٢٢.

الفصل الرابع

سفيان بن عُيينة، ونشاطه الديني

١ ـ عبادته وتقواه:

كان ابن عُيينة إماماً تقيّاً، وعابداً مخلصاً لربّه، فهو من العباد المذكورين بالخير والصّلاح ونقاء السّريرة. والعبادة الحقّة في نظره، ترتكز على ترك ما يغضب الله عزّ وجلّ، والامتناع عمّا نهى عنه. لهذا كان يقول: «لم يجتهد أحد قطّ اجتهاداً، ولم يتعبّد أحد قطّ عبادةً أفضل من ترك ما نهى الله عنه»[1].

وفي رأيه أن للعبادة شروطها الخاصّة بها، فقال: «لا يعبد الله بمثل العقل، ولا يكون المرء عاقلاً حتى تكون فيه عشر خِصال، حتى يكون الكبر منه مأموناً، والرشد منه مأمولاً، وحتى يكون الذلّ أحبّ إليه من العزّ، والفقر أحبّ إليه من الغنى، وحتى يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثيره من نفسه، وحتى يكون نصيبه من الدنيا القوت، وحتى يكون طالباً للعلم طول عمره، والأخرى شادَ بها مجده، وعلا به ذكره، ولا يلقاه أحد إلّا رأى نفسه دونه»[2].

---

(١) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٧.

(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٢.

والواقع أن هذه الشروط لا نسلّم بها جميعها؛ لأنـه في يقيني أن العابد العزيز الغني لهو أفضل بدرجات من العابد الذليل الفقير؛ فالأمة تغتني بالعابد الغني، وتفتقر وتذلّ بالعابد الفقير الذليل، لأن هذا الأخير يبقى عالة على المجتمع.

ولا ريب أن العبادة الحقّة، تتطلّب الاكتفاء الذاتي ولا تصلح مع الحاجة وذلّ المسألة، ولا تطيب في أن نغرق في الفقر منتظرين هِبات المُحسِنين، وعطاء المتصدّقين، ويحضرنا في هذه المناسبة موقف الإمام سفيان الثّوري الذي كان يقول: «إذا أردت أن تتعبّد فاحرز الحنطة»[1]. وكذلـك موقف الإمـام المجاهـد عبد الله بن المبارك الذي عاتبه صحبه على اتّجاره وامتـلاكه المـال فقال: «... إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربّي، لا أرى لله حقّاً إلّا سارعت إليـه حتى أقوم به...»[2].

ويرى ابن عيينة؛ أن العبادة تتطلّبا الإيمان الحقيقي المبني على التعاطي مع الحلال الصّرف، ومُجافاة الحرام وكلّ كما يشتبه به فقال: «لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشاباه منه»[3]. والإيمان بحسب رأيه: «قول وعمل، يزيد وينقص»[4].

---

(١) انظر الإمام سفيان الثّوري سيّد الحفّاظ، ص ٩٧ وما بعدها.

(٢) انظر كتابنا الإمام المجاهد عبد الله المبارك، ص ٧٦ وما بعدها. ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١/١٩٩٠.

(٣) أحمد بن حنبل، كتاب الورع، ص ٣٠، ٨١ ـ ٨٢، دون نشر، دون تاريخ.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٠؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٨.

وتتوضّح شروط الإيمان عند سفيان من خلال حديثه عن المراحل التي مرّ فيها الإسلام، فقال[1]: «بعث الله النبي (ﷺ) إلى الناس أن يقولوا لا إلّه إلّا الله، فإذا قالوها حقنوا بها دماءهم وأموالهم إلّا بحقها، وحسابهم على الله، فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم ـ أمر النبي (ﷺ) ـ أن يأمرهم بأن يقيموا الصلاة... ثم أمره أن يأمرهم أن يهاجروا إلى المدينة... ثم أمره أن يأمرهم أن يرجعوا إلى مكّة فيقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقرّوا بمثل إقرارهم ويشهدوا بمثل شهادتهم... ثم أمرهم أن يطوفوا بالبيت تعبّداً ويحلقوا رؤوسهم تذلّلاً... ثم أمرهم أن يؤتوا الزكاة قليلها وكثيرها... فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض ومثولهم لها قال له: قل لهم: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾»[2].

بعد ذلك؛ وجّه سفيان حديثه إلى أحد روّاد مجالسه فقال: «فمَن ترك شيئاً من ذلك كسلاً أو مجوناً أدّبناه عليه، وكان عندنا ناقص الإيمان، ومَن تركها عامداً كان بها كافراً، هذه السُّنّة أبلغ عنّي مَن سألك من المسملين»[3].

ويجد سفيان أن للمرء العابد صفات يُعْرَفُ بها، ومن أجلّ تلك الصفات هو التحلّي بالرِضى بقضاء الله وقدره، والقناعة بما

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩٦.

قُسِمَ له في هذه الحياة، فقال: «الراضي عن الله، لا يتمنى سوى المنزلة التي هو فيها»[1]. وقال أيضاً: «مَن رضي بالصبر على البلاء، ورضي بالقضاء، فقد كمل أمره»[2].

بعدئذ ينصح العابد بأن يلجأ إلى الله وحده في الملمّات لأنه بذلك يستغني عن حاجة الناس، وبالتالي يُبعِد عنه غضب الربّ، فسُمِع يقول: غَضَبُ اللّهِ الدّاء الذي لا دواء له، ومَن استغنى بالله، أحوجَ اللّهُ إليه الناس»[3].

والجدير ذكره؛ أن سفيان أخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى العبادة الحقّة وسلوك طريق الخير والصبر على المصائب، فكانت مجالسه، والحالة هذه، لا تخلو من المواعظ الحسنة التي سلك في نشرها سياسة الترغيب والترهيب. فكان يرغّب الناس بالجنة ويخوّفهم من النار فيقول لهم: «اسلكوا طريق الخير، ولا تستوحشوا من قلّة أهله»[4]، وكان يحثّهم على الصبر فيقول: «لم

(١) صفة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٨. الكواكب الدرّيّة، جـ١، ص ١١٧.
رُوِيَ أن ابن عُيينة دخل على عبد الله بن مرزوق بعد توبته وكان برفقته الفضيل بن عياض، فوجدا تحت رأسه لَبِنَةً وليس تحت شيء. فقال له سفيان: «إنه لم يدع أحد لله شيئاً إلّا عوّضه الله منه بدلاً، فما عوّضك مما تركت له؟ قال: الرضا بما أنا فيه». (ابن قدامة المقدسي، كتاب التوّابين، حقّقه عبد القادر الأرناؤوط، ص ١٦٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧.

(٢) طبقات الشعراني، جـ١، ص ٦٢.

(٣) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٧٣.

(٤) صفة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٧؛ الكواكب الدرّيّة، جـ١، ص ١١٨.

يعطِ العباد أفضل من الصبر به دخلوا الجنة»[1]. وقال أيضاً: «إنما دخل أهل الجنّة الجنّة بالصبر»[2]. ثم دعاهم إلى التنعّمْ بذكر الرجال الصالحين لتنزل عليهم رحمة الله فقال: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»[3].

وكان يدعوهم من حين لآخر إلى الإخلاص في العبادة لعلّ الله يمنّ عليهم بنعمته فقال: «ما أخلص عبد الله أربعين يوماً إلّا أنبت الله الحكمة في قلبه نباتاً، وانطلق لسانه بها، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها»[4].

ولعلّ ابن عُيينة؛ لم يجد الأُذُن الصاغية لدعوته وهتافاته بين أروقة المساجد، الأمر الذي دفعه لاعتماد سياسة الوعد والوعيد، فقال محذّراً الناس من المعصية: «أوصى الله عزّ وجلّ إلى موسى (ع) أن أول مَن مات إبليس، وذلك أنه أول مَن عصاني، وأنا أعدّ مَن عصاني من الموتى»[5]. ثم تحدّث عن رهبة النار فقال: «خلقت النار رحمة يخوف الله بها عباده لينتهوا»[6].

ومما يؤكد اهتمام ابن عُيينة بتلك الأمور في مجالسه، ما حدّث به بكر العابد فقال: «قلت لسفيان بن عُيينة: يا أبا محمد،

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٣٠٦.

(٣) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٧.

(٥) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٥؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.

(٦) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.

أبلغك أن الناس يزدحمون يوم القيامة؟ فقال: (الأقـدام هكذا) ووضع يده فوق الأخرى، ثم قال بكر: بلغني أن الناس يخرجون من قبورهم وهم يقولون الماء الماء، العطش العطش»[1]، ثم أضاف سفيان: كان يقال: «أشدّ الناس حسرةً يوم القيامة ثلاثة، رجل كان له عبد فجاء يوم القيامة أفضل عملاً منه، ورجل له مال فلم يتصدّق منه فمات فورثه غيره فتصدّق منه، ورجل عالِم لم ينتفع بعلمه فعَلِمه غيره فانتفع به»[2]. وكان يردّد قول الحسن: للأبد خلقتم، ولكن تنتقلون من دار إلى دار»[3]. ثم نهى مجلسه بقوله: «قد ورد الأول والآخر مساق متعب، وقد تقارب عطاء جزل وسلب فاحش، فأصلحوا ما تُقْدِّمون عليه بما تظعنون عنه، فإن الحق للخالق والشكر للمُنْعِم، وإنما الحياة بعد الموت، وإنما البقاء بعد القيامة»[4].

وعلى الرغم من تلك الجهود التي كان يبذلها سفيان، فقد وجد نفسه كأنه ينحت في صخر فأصبح على قناعة بأن الناس قد خسروا الدنيا والآخرة معاً، فحينما قال له إسحاق بن إسرائيل: يا أبا محمد، أجدب الناس من الدين والدنيا قال: «أجدبوا فلا مرتع ولا مفزع». ثم أضاف: «بئس منزل ـ أو تحوّل ـ عبد مقيم على ذنب ثم يتحوّل منه إلى غير توبة»[5]. وقال أيضاً: «... علمي بصالح

---

(١) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٦.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٧، ٢٨٧.

نفسي، علمي بفسادها، وبحسب امرىء من الشرّ أن يرى من نفسه فساداً لا يصلحها». ثم أعطاهم مثلاً عن العبد الصالح فقال: «إن العبد ليعمل الذنب فما يزال به كئيباً»[1].

ثم خلص ابن عُيينة إلى نتيجة ثابتة ومؤلمة في آنٍ معاً، ومفادها أن الله عزّ شأنه قهر عباده بثالوث الألم ولولا ذلك لما خشيوا ربّهم وانتهوا عن ارتكاب المعاصي فقال: «لولا أن الله عزّ وجلّ طمأن ابن آدم بثلاث ما أطاقه شيء، وأنهى لقيه، وإنه على ذلك لوثّاب: الفقر، والمرض، والموت»[2].

وإذا تركنا هذه الأقوال جانباً، وانتقلنا إلى الناحية العملية، نجد أن العبادة عند سفيان تتجلّى في موقفه من الصلاة والصوم والحج وتلاوة القرآن والذّكر والشكر والابتهال وغير ذلك من واجبات دينية تُظهِر جوهر الإنسان العابد المخلص لربّه، الذي لا يرجو من العبادة سوى رِضى الله وإراحة ضميره، من غير أن يأخذ بعين الاعتبار مُجاملة الآخرين أو الأخذ برأيهم ومُراعاة شعورهم، ما دام يتصرّف وفق ما يُمليه عليه الشرع وضميره الحيّ والواجب الإنساني، ومبدأه في ذلك «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ومن المؤسف حقّاً، أن المصادر التي بين أيدينا لم تمدّنا بمعلومات وافية عن ممارسة ابن عُيينة لواجباته الدينية، وكلّ ما في حوزتنا مجموعة من أقواله تكون في مجملها صورة خجولة عن عبادته وتقواه.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٠، ٢٨٨.
(٢) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٦.

وأول ما يُطالعنا موقف سفيان من الصلاة فهو يجد أنه على العابد الحقيقي أن يُقبِل على هذا الواجب بكل جوارحه على أن يكون الدافع لممارستها نابعاً من ذاته قبل أن يُدعى لذالك من قِبَل الآخرين، لهذا كان يقول: «ائتوا الصلاة قبل النداء، ولا تكونوا كالعبد السّوء لا يأتي للصلاة حتى يُدعَى عليها»[1]. وقال أيضاً: «من توقير الصلاة أن تأتي قبل الإقامة»[2].

وواضح؛ أنه كان يقرن صلاته بالشكر والدعاء والمناجاة، ولم تخلُ تلك المواقف من إظهار الحزن والألم النفسي. فكان يقول بُعَيد فراغه من صلاته: «اللّهمَّ اغفر لي ما كان فيها» [3]. ويقول أيضاً: «اللّهمَّ إني أسألك حُسْن الظن، وشُكْر العافية»[4] وكان يدعو بدعاء أبي الدرداء فيقول: «اللّهمَّ متّعنا بخيّارنا، وأعِنّا على شرّارنا، واجعلنا خيّاراً كلّنا، واجعل أمرنا عند خيّارنا، وإذا أذهبت الصالحين فلا تُبقِنا بعدهم»[5].

ولعلّ سفيان كان معنيّاً بجهّال الناس، فيأخذ بيدهم ويرشدهم في التقرّب إلى الله عزّ وجلّ، حدّث الأصمعي عن سفيان أنه قال: «رأيت أعرابياً جاء يطوف بالبيت فتبعته فقلت: لعلّه لا يُحسِن فأعلمه ما يقول، قال: فجاء فتعلّق بأستار الكعبة فقال: «اللّهمَّ إليك خرجت

(١) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٥؛ صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٧.
(٣) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٨.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٣.

وأنت أخرجتني، وإليك جئت وأنت جئت بي، وبفنائك أَنَخْتُ وأنت حملتني، اللّهمَّ فقد عجّت إليك الأصوات بصنوف اللغات، يسألونك الحاجات، وحاجتي إليك أن تذكرني على طول البلاء إذ نسيني أهل الدنيا»»[1].

إلى جانب ذلك؛ كان سفيان عبداً شكوراً، يحبّذ الشكر ويدعو الناس إليه، لأنه من صفات العباد المخلصين في عبادتهم. فسُمِعَ يقول: «ليس من عباد الله أحد إلاّ والله الحجّة عليه، إما في ذنب، وإما في نعمة مقصّر في شكرها»[2]. ثم عَرَفَ الشاكر بقوله: «... الشاكر الذي يعلم أن النعمة من الله تعالى أعطاه إياها، لينظر كيف يشكر، وكيف يصبر»[3].

وبعد أن خلص سفيان من أقواله في الشكر، انتقل إلى مرحلة التطبيق ليعلّم الناس كيف ومتى يشكر المرء ربّه فقال لصاحبه أبي عبد الله الرازي: «يا أبا عبد الله إن مَن شكر الله على النعمة أن تحمده عليها، وتستعين بها على طاعته، فما شكر الله مَن استعان بنعمته على معصيته»[4]. وبعد ذلك أخذ في عرض نماذج من الشكر فقال: «عمل رجل من أهل الكوفة بخلق دمي، فأعتق جار له جارية شكراً لله إذ عفاه الله من ذلك الخلق». وقال أيضاً: «أمطرت مكة

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٢) الكواكب الدرّيّة، ج ١، ص ١١٨.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٨.

مطراً تهدّمت منه البيوت، فأعتق عبد العزيز بن أبي رواد جارية شكراً لله إذ عافاه الله منه»[1].

وهكذا سار سفيان على نهج الرسول (ﷺ) حين أوصى رجلاً بثلاث خِصال فقال: «أكثر مَن ذكر الموت يسلك الله عمّا سواه، وعليك بالدعاء لا تدري متى يُستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة»[2].

وكذلك أثبت سفيان على أنه كان معلّماً في صنوف العبادات، ومُلِمّاً بكل ما يمتّ إلى ذلك بصلة، فعندما ذكر في مجلسه «الدعاء والابتهال والإخلاص» شرع يوضح لجلسائه كيف كان السلف الصالح يؤدّي تلك الأمور. وطالما استشهد بمواقف ابن عباس فروى قوله: «الإخلاص هكذا، وبسط يده اليُسر وأشار بأصبعه من يده اليُمنى؛ والدعاء هكذا؛ وأشار براحتيه إلى السماء؛ والابتهال هكذا، ورفع يديه فوق رأسه وظُهورُهما إلى وجهه»[3].

وإلى جانب الشكر؛ كان يرى سفيان أن أفضل شيء في العبادة هو «التفكّر والاعتبار»، وفيما سُئِلَ عن الفكرة قال: «الفكرة نور تُدخِله قلبك» ثم تمثّل بهذا القول:

إذا المرء كانت له فكرة
ففي كلّ شيء له عبرة[4]

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠٣.
(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٣٠٥.
(٣) العقد الفريد، جـ٣، ص ٢٢١.
(٤) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠٦.

بالإضافة إلى ذلك، كان سفيان في عبادته ووقوفه بين يدي الجليل خاشعاً ذليلاً حزيناً، والحزن في حياته له قصص وروايات يرويها هو عن نفسه حيناً، ويذكرها أصحابه عنه أحياناً أخرى، مثال ذلك ما حدّث به منصور بن عمّال فقال: «تكلمت في مجلس فيه سفيان بن عُيينة وفضيل بن عِياض وعبد الله بن المبارك، فأما سفيان بن عُيينة فتغرغرت عيناه ثم نشفتا من الدموع، وأما ابن المبارك فسالَت دموعه، وأما الفضيل فانتحب، فلما قام فضيل وابن المبارك قلت لسفيان: يا أبا محمد ما منعك أن يجيء منك ما جاء من صاحبك؟ فقال هذا أكمد للحزن، إن الدمعة إذا خرجت استراح القلب»[1].

ويُروَى أنه قيل له: آلا ترى أن الفضيل لا تكاد تجفّ له دمعة، قال: وكان يقال: إذا فرح القلب نزفت العينان، ثم تنفس تنفساً منكراً[2].

وهكذا فإن للحزن عند سفيان فلسفة خاصّة فأفضله ما كُبِتَ في داخل النفس البشرية؛ مما يساعد على استمراريته وبقاء أثره، وفي يقينه أن الحزن يجب أن يتمّ في الخفاء تقرّباً لله تعالى والحادثة التالية تبيّن ذلك، قال سفيان: «أصابتني ذات يوم رقّة فبكيت، فقلت في نفسي: لو كان بعض أصحابنا لرقّ معي. ثم غفوت فأتاني آتٍ في منامي فرفسني وقال: يا سفيان خذ أجْرك ممّن أحببت أن يراك»[3].

(١) حلية الاولياء، جـ٧، ص ٣٠٢، صفة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٧.
(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٨٦.
(٢) صفة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٦.

وذكر أن سفيان قال لأحد أصحابه: يا عبد الله: هل حزنت قطّ لعلم الله جلّ وعزّ فيك؟ فقال عبد الله: آه تركتني لا أفرح»[1].

ورُوِيَ أنـه قال في مجلسه: قـال رجل: «واحزناه على أن لا أحزن». قال إسحاق بن إسرائيل: «أراه أراد نفسه»[2].

وبعد عرض هذه المواقف يجدر بنا أن نتناول موقف سفيان من فريضة الحج. خصوصاً بعد أن أجمعت المصادر على أنه كان مواظباً على ارتيـاد المواسم فـذُكِرَ أنـه حجّ مـا بين السبعين[3] والثمانين[4] حجّة، وحتى شهادات سفيان نفسه جاءت متضاربة بهذا الخصوص، فبشهادة سليمان بن أيوب أنه سمعه يقول: «شهدتُ ثمانين موقفاً»[5] ويعود فيقول في آخر سنة حجّ فيها: «هذه تُوفِي لي سبعين وقفة بعَرَفَة»[6].

والملاحظ؛ أن الاختلاف لم يقتصر على عدد المرّات التي حجّ فيها سفيان، وإنما شمل ذلك تحديد السنة التي حجَّ فيها لأول مرة، وبالتالي معرفة عمره آنذاك.

---

(١) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٨.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٦.
(٣) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٤٩ ـ ١٥٠؛ تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٣؛ الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٢٨٢؛ شذرات الذهب، جـ ١، ص ٣٥٤ . ٣٥٥.
(٤) طبقات القرّاء، جـ ١، ص ٣٠٨؛ صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٨.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٥.
(٦) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٣.

والثابت؛ أنه كان يقوم بتلك الفريضة المقدسة برفقة والده، فقال الدارقطني: «كان أبوه يحجّ به قديماً»[1]. وقال أبو داود: «حجّ به أبوه سبعاً وعشرين حجّة، وحجّ به وله ستّ سنين إلى أن بلغ نيّفاً وثلاثين سنة»[2]. وهذا يعني أنه حجّ لأول مرة سنة ١١٣/ ٧٣١.

بعد ذلك؛ بدأ الاختلاف في وجهات النظر ففي حين يقول علي بن المديني: «حجّ سفيان بن عُيينة اثنتين وسبعين حجّة، مات عطاء سنة خمس عشرة ومائة (١١٥/ ٧٣٣)، وحجّ سفيان بعد موته بسنة ـ أي سنة ١١٦/ ٧٣٤ ـ وهو ابن تسع سنين، فلم يزل يحجّ إلى أن مات»[3]. ويزكّي ابن سعد هذه الرواية ويستشهد بحديث سفيان نفسه فقال: «حججت سنة ستّ عشرة ومائة (١١٦/ ٧٣٤) ثم سنة عشرين (١٢٠/ ٧٣٨)»[4].

ولدينا روايات أُخرى تناقض ما أدلى به علي بن المديني وما صرّح به سفيان عن نفسه. فذكر الخطيب البغدادي أن سفيان قال: «حجّ بي أبي وعطاء بن أبي رباح حيّ»[5]. ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الجعفي عن سفيان الذي قال: «... حجّ بي أبي سنة أربع عشرة ومائة (١١٤/ ٧٣٢)»[6].

---

(١) و(٢) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٧٦.
(٣) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ١٨٨؛ تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٣.
(٤) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٤٩٧.
(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٦.
(٦) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ١٨٦.

مهما يكن من أمر؛ فإن سفيان كان يمارس شعائر الحجّ بكل ما فيها من خشوع وتأمّل، وبالتالي التبرّك بماء زمزم فذكر شاهد عيان أنه رآه وقد أُتِيَ بماء زمزم فشرب وسقى الذي عن يمينه وقال: «ماء زمزم بمنزلة الطبيب لا يُرَدّ»(١).

إن هذه المؤهّلات والصفات الحميدة التي كان يتحلّى بها ابن عُيينة؛ تدفعنا لمعرفة عقيدته التي كان مخلصاً لها.

وبالعودة إلى المصادر؛ تبيّن لنا أن ابن النديم قد ذكره في عداد الذين كانوا على مذهب الزيدية، وهم الذين قالوا بإمامة زيد بن علي زين العابدين، ثم قالوا بعده بالإمامة في ولد فاطمة كائناً مَن كان، بعد أن يكون عنده شروط الإمامة(٢).

أما ابن عدي فنسبه إلى شيء من التشيّع، فقال في ترجمة عبد الرزّاق: ذكر ابن عُيينة حديثاً فقيل له هل فيه ذِكْر عثمان؟ قال: نعم، ولكني سكت لأني غلام كوفي»(٣).

وأشار الذهبي إلى استقلاليته وأهميته وكثرة أتباعه فقال: كان سفيان رحمه الله صاحب سُنّة، وأتباع»(٤)، ولعلّ بعض أصحاب المذاهب وجدوا فيه بقية السلف الصالح، والقدوة لهم في الأمور الفقهية. فقال النووي: «هو أحد أجداد الشافعية في طريق الفقه»(٥).

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٢) الفهرست، ص ٢٥٣.
(٣) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.
(٤) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٥.
(٥) تهذيب الأسماء واللغات، ص ٢٩٠.

بالنتيجة؛ فإنه مهما كانت عقيدة ابن عُيينة، فإنه يبقى من خِيرة الرجال الذين عاهدوا الله والإنسانية على أن يبقوا مخلصين لأمتهم، وهذا سرّ ديمومته في كتب التراث، وفي وجدان الأجيال المتعاقبة.

٢ ـ زهده وورعه:

إلى جانب عبادة ابن عُيينة وتمسّكه بالشعائر الدينية، فقد كان وبحسب المصادر، زاهداً عابداً ورِعاً، فقال صاحب حلية الأولياء: «كان عالماً ناقداً، وزاهداً عابداً»[١]. وقال ابن خلّكان: «كان زاهداً ورعاً»[٢]. وقال ابن حبّان: «كان من أهل الورع والدين»[٣]. غير أن سفيان لم يكن في زهده بسيطاً ومقلّداً للآخرين، وإنما كان عميقاً ومتبحِراً في الزهد الحقيقي الذي كان عليه السلف الصالح.

وواضح؛ أنه كان لابن عُيينة فلسفة خاصّة في عالمي الزهد والعبادة وهي تظهر بوضوح من خلال مواقفه وأقواله. فهو يرى أن ثمة صلة وثيقة بين العبادة والزهد، وبين الزهد والفقه، وبالتالي فإن جميع تلك الأمور تكاد تكمّل بعضها البعض، فقال: «لا تصلح عبادة إلّا بزهد، ولا يصلح زهد إلّا بفقه، ولا يصلح فقه إلّا بصبر»[٤].

---

(١) أبو نعيم الأصفهاني، جـ٧، ص ٢٧٠؛ الكواكب الدرّيّة، جـ١، ص ١١٧.

(٢) وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٣٩١.

(٣) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٥٠؛ تهذيب ابن حجر، جـ٤، ص ١٢٢.

(٤) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠٢.

ولا ريب أن سفيان كان يقرن دائماً العلم بالأمور الدينية والخلوقية: فكما رأى أن الزهد لا يصلح إلّا بفقه؛ فيرى كذلك أن الورع لا يصلك إلّا بالعلم، فعندما سُئِلَ عن الورع قال: الورع طلب العلم الذي يُعرَف به الورع، وهو عند قوم طول الصمت، وقلّة الكلام، وما هو كذلك، إن المتكلّم العالِم أفضل عندي وأورع من الجاهل الصامت»[1]. وهكذا تتّضح وتتجلّى فلسفة سفيان بأبهى صورها حيث جعل من العلم أساساً للزهد والورع اللذين تتطلّع إليها النفوس النقيّة الطوّافة لنشر الخير والصلاح بين أبناء البشر.

والملاحظ أن سفيان كان يتشبّه كثيراً بأُستاذه ابن شهاب الزهري، وحتى في زهده كان ينظر إليه على أنه مثله الأعلى، لهذا كان يتمثّل بقوله حينما يناقش في مجلسه موضوع الزهد، فكان يقول: سُئِلَ الزُّهري عن الزهد في الدنيا فقال: «مَن لم يغلب الحلال شكره، ولا الحرام صبره»[2].

وبعد أن بلغ ابن عُيينة في زهده مركز الشُّهرة، أصبح مجلسه مرتعاً خصباً للزاهدين الوَرِعين الذين كانت تقلقهم أقلّ الأمور التي تعترضهم في حياتهم الخاصّة، فكانوا يلجأون إليه ليُقَدِّم إليهم الدواء الشافي ويخلّصهم من القلق الوجداني فحينما سُئِلَ عن الزهد، قال: «الزهد في الدنيا هو الصبر وارتقاب الموت»[3].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٩.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٨.
(٣) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤.

ولقد أورد أحمد بن أبي الحواري حواراً له مع سفيان يتوضّح من خلاله موقفه من الزهد فقال: «قلت لسفيان: يا أبا محمد أيّ شيء الزهد في الدنيا؟ قال: من إذا أنعم الله عليه نعمة فشكرها، وابتلى ببليّة فصبر، فذلك الزهد. قلت له: يا أبا محمد، فإن أنعم عليه بنعمة فشكر، وابتلى فصبر وهو ممسك للنعمة كيف يكون زاهداً؟ قال: اسكت! فمَن لم تمنعه البلوى من الصبر، والنعمة من الشكر فذلك الزهد»(١). وفي مجلس آخر قال: «من أبرّ البرّ كتمان المصائب»(٢). ثم ختم حديثه بقوله؛ «إذا جمعت هاتين كمل أمري: إذا جدت على البلاء، ورضيت بالقضاء»(٣).

بعد ذلك، راح يصوّر لروّاده الحالة التي يمرّ فيها الزاهد فقال: «كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة ولم تزل، وكأنك بآخر مَن يموت وقد متّ»(٤).

وكان يرى ابن عُيينة بنظره الثاقب؛ أن الكثيرين يَدَّعُون الزهد، وهم بالحقيقة من أهل الدنيا، لذا كان ينبّه أصحابه إلى هؤلاء المتزهدين ويقول فيهم: «كم من شخص يُظْهِر الزهد في الدنيا، والله مطّلع على قلبه أنه محبّ لها»(٥). وكذلك كان يتأذّى

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٣؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٨.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٥.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص؛ ٢٧١؛ طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٣.
(٥) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.

من الذين يتكالبون على مباهج الدنيا ويقول فيهم: «زافت[1] لهم الدنيا فوثبوا عليها»[2].

وواضح؛ أن ابن عُيينة كان واقعياً في زهده، فلم يتحامل على نفسه ويحمّلها فوق طاقتها؛ لأن ذلك ليس من الزهد في شيء، لذا كان في زهده، يتأسّى بالنبيين والصدّيقين الذين سبقوه في ميدان الزهد والورع، فعندما سُئِلَ عن الزهد الحقيقي قال: «الزهد فيما حرَّم الله، فأما ما أحَلَّ الله، فقد أباحَكَهُ الله، فإن النبيّين قد نكحوا، وركِبُوا، ولَبِسُوا، وأكلوا، لكن الله نهاهم عن شيء، فانتهوا عنه، وكانوا به زهّاداً»[3].

وأضاف قائلاً: «ليس من حبّ الدنيا؛ طلبك ما لا بدّ منه»[4].

والملاحظ؛ أن سفيان لم يأخذ دائماً بمجمل تلك المبادىء خلال تعامله مع الزهد، وإنما كان يتشدّد أحياناً كثيرةً على نفسه، فيحرمها الكثير من متع الحياة التي يحلّلها الشرع، ويتّضح لنا ذلك من خلال استعراض صور من حياته وطرق معيشته.

فبالنسبة لموقفه من المأكل والمشرب والملبس، فقد كان مقصّراً على نفسه، ومجاهداً لرغباته وشهواته، وقد عانى الكثير من صراعه مع ذاته، لأن في شرعه؛ أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر لهذا قال:

---

(١) زاف الرجل والبعيرُ وغيرهما يزيفُ تَبَخْتَر في مِشيته. لسان العرب (مادة زيف)، جـ ٩، ص ١٤٣.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٩.
(٣) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٥؛ طبقات الشعراني، جـ ٢، ص ٦٢.

«الجهاد عشرة أجزاء، جهاد العدو جزء وجهاد النفس تسعة أجزاء»[١]. وكان يرى أيضاً، أن كتمان الفقر والحاجة يأتيان في طليعة الأعمال الصالحة فقال: «عليكم بكتمان الفقر فإنه من العمل الصالح»[٢]، لأن ذلك: «من أشدّ ما يكون على النفس»[٣].

وواقع الحال، فإن سفيان لم يتذوّق لذيد الطعام، ولا بارد الشراب، ولم يرتد ناعِم اللباس، لذا اقتصر في حياته اليومية على أمور بسيطة لا تكاد تسدّ حاجاته الجسدية، فعن طعامه حدّث حرْمَلَة بن يحيىٰ قال: «أخذ سفيان بن عُيينة بيدي فأقامني في ناحية وأخرج من كُمّه رغيف شعير وقال لي: دع يا حرملة ما يقول الناس، هذا طعامي منذ ستّين سنة»[٤].

ويؤكد هذا الأمر ما حدّث به أبو يوسف الفسوي فقال: «دخلت على سفيان بن عُيينة وبين يديه قرصان من شعير فقال: يا أبا يوسف أما إنهما طعامي منذ أربعين سنة»[٥].

والحقيقة فإنني لم أكتفِ بما صرّح به ابن عُيينة وصحبه بهذا الخصوص وإنما حاولت العثور على أسماء بعض المآكل التي كان يتناولها الرجل، غير أنني لم أُوَفّق بسوى إشارة واحدة وردت في كتاب الورع، ومفادها أنه بعث بأحد أصحابه ليشتري له سمكاً[٦].

(١) طبقات الشعراني، جـ٢، ص ٦٢؛ الكواكب الدرّيّة، جـ١، ص ١١٧.
(٢) الكواكب الدرّيّة، جـ١، ص ١١٧.
(٣) طبقات الشعراني، جـ١، ص ٦٢.
(٤) صفة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٦؛ أعلام النبلاء، جـ٨، ٤٦١.
(٥) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٧٢؛ الجواهر المضية، جـ١، ص ٢٥١.
(٦) أحمد بن حنبل، ص ٥.

وإذا صدقت مقولة سفيان فلعلّه اشترى ذلك السمك لأفراد عائلته، وتبقى هذه الناحية مجتزأة إلى أن نحصل على مادة جديدة تُغني هذا الجانب من الدراسة.

مهما يكن من أمر؛ فالملاحظ أن ابن عُيينة كان يتشبّه في زهده بسيرة الذين سبقوه على طريق الزهد، لهذا كان يتمثّل بأقوالهم ومواقفهم، فعندما كان يُعاتب في تقصيره على نفسه كان يردّد قول علي بن أبي طالب: «لا يكون الرجل قيّم أهله حتى لا يبالي ما سدّ به فورة الجوع، ولا يبالي أيّ ثوبيه ابتذل»[1] وحينما كان يسأل عن الاقتصاد والزواج والبناء كان يدمغهم بسيرة السيـد المسيح (ع) فيقول: «كان عيسى (ع) لا يخبّىء غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء، ويقول: (مع كل يوم وليلة رزقها ليس له بيت يخرب)، وقيل له ـ أي للمسيح ـ ألا تتزوج؟ قال: (أتزوج امرأة تموت؟). وقيل له: ألا تبني بيتاً؟[2]. قال: (إني على طريق السبيل)[3].

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠٦.

(٢) الملاحظ أن سفيان لم يكن يرغب في شغل نفسه بالبناء والعمارة بدليل ما كان يرويه عن السيد المسيح (ع) وما ذكره كذلك عن عمر بن الخطاب قال: «بلغ عمر بن الخطاب أن رجلاً بنى بالآجر فقال: (ما كنت أحسب أن في هذه الأمة مثل فرعون)، ولمّا بلغ عمر أن أبا الدرداء ابتنى كنيفاً بحمص أمره بالانتقال من حمص إلى دمشق عقاباً له. ومن شدّة خوف سفيان من البناء وزهده فيه كان يقول: «بلغني أن الدجّال يسأل عن بناء الآجر هل ظهر بعد» (حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٧٣.

وواضح، أن ابن عُيينة لم يكن زاهداً في الزواج بدليل أنه عندما سُئِلَ عن زهد المسيح (ع) بالنساء قال: «إنما كان عيسى ابنُ مريم لا يريد النساء، لأنه لم يُخلَق من نطفة»[1] وهذا الواقع يحثّنا للبحث عن موقف سفيان من الزواج.

الثابت؛ أن سفيان كان متزوّجاً وقد كان اختياره لزوجته وفق السُّنّة النبوية الشريفة، فروى هو قصة زواجه فقال: «كنّا إخوة أربعة، محمد وعمران وإبراهيم وأنا، فمحمد أكبرنا وعمران أصغرنا، وكنت أوسطهم، فلما أراد محمد أن يتزوّج رغب في الحسب فتزوّج مَن هي أكبر منه حسباً فابتلاه الله بالذلّ، وعمران رغب في المال فتزوّج مَن هي أكثر منه مالاً فابتلاه الله بالفقر، أخذوا ما في يديه ولم يعطوه شيئاً، فبقيت في أمرهما فقَدِمَ علينا معمر بن راشد فشاورته، وقصصت عليه قصة إخوتي، فذكّرني حديث يحيىٰ بن جعدة وحديث عائشة، فأما حديث يحيىٰ بن جعدة قال النبي (ﷺ): «تُنكَح المرأة على أربع؛ على دينها وحسبها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدِّين ترِبَت يداك»[2]. وحديث عائشة أن النبي (ﷺ) قال: «أعظم النساء بركة أيسرهنّ مؤنة»[3]. فاخترت لنفسي الدين وتخفيف الظهر اقتداء بسُنّة رسول الله (ﷺ)، فجمع الله لي العزّ والمال مع الدين»[4].

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٩.

(٢) رواه البخاري في النكاح باب ١٥، ومسلم في الرضاع حديث رقم (٥٣)؛ وأبو داود في النكاح باب ٢، وأحمد في المسند، جـ ٢، ص ٤٢٨.

(٣) رواه أحمد، جـ ٦، ص ١٤٥.

(٤) حلية الأولياء؛ جـ ٧، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

فهذا كلّ ما لدينا من معلومات عن موقفه من الزواج وكنّا نبغي معرفة كيفية تعاطيه مع أفراد أسرته، ومدى توفيقه بين اهتماماته بالحديث والقضايا الدينية، وبين واجباته الأسرية، مما يساعدنا على إجراء مقارنة بينه وبين الإمام سفيان الثّوري الذي كان له موقف واضح من هذه القضية[1].

كذلك لم نعثر على إشارات توضح موقفه من الشراب، واللّباس[2]. وأما عن موقفه من الغناء فقد وردت حادثة في العقد الفريد[3] تبيّن أنه كان يستسيغ الحسن منه بخاصة الذي يمجّد الشعائر الدينية ويتوافق مع الحشمة والتهذيب، وبالمقابل كان يرفض القبيح منه، ولا سيما الذي يتناول النساء والغزل بهنّ وما يتّصل بذلك من الإباحيات. والرواية التالية تُظهِر ذلك.

حدّث إبراهيمُ بن المُنذر الحِزامي، أن ابن جامع السّهمي[4] قَدِمَ مكة بمال كثير، ففرّقه في ضُعفاء أهلها، فقال سُفيان بن عُيينة: بَلغني أن هذا السّهمي قَدِمَ بمال كثير. قالوا: نعم. قال: فعلامَ

---

(١) انظر؛ الإمام سفيان الثّوري، ص ١١١ - ١١٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦، ١٠٩.
(٣) ابن عبد ربّه، جـ ٦، ص ٩ - ١٠.
(٤) هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع السهمي القرشي: من أكابر الغنين الملحنين، وُلِدَ بمكة، وانتقل إلى المدينة، واحترف الغناء، فاشتهر ورحل إلى بغداد، فاتصل بالخليفة هارون الرشيد، وحَظِيَ عنده، وكان من أقران إبراهيم المُصلّي، توفي سنة ١٩٢/٨٠٨. أعلام الزركلي، جـ ١، ص ١١١.

تُعطي؟ قالوا: يُغني الملوك فيعطونه. قال: وبأيّ شيء يُغنيهم؟ قالوا: بالشعر. قال: فكيف يقول؟ فقال له فتىً من تلاميذه: يقول:

أطوفُ بالبَيت مَع مَن يَطوف[1]
وأرفعُ من مِئْزَري المُسْبَلِ

قال: بارك الله عليه، ما أحسن ما قال! قال: ثم ماذا؟ قال:

وأسْجُد بالليل حتى الصباحِ[2]
وأتلو من المُحْكَمِ المُنْزَلِ

قال: وأحسن أيضاً، أحسن الله إليه؛ ثم ماذا؟ قال:
عَسى فارِجُ الهَمّ[3] من يُوسفٍ
يُسخّرُ لي ربَّةَ المَحْمِلِ

قال: أمسِك أمسِكْ. أفسد آخراً ما أصلح أولاً[4].

---

(١) قال أبو العباس المبرّد في كتابه؛ الكامل في اللغة والأدب، جـ ١، ص ٣٩٣، بيروت: مكتبة المعارف، (مع الطائفين) بدلاً من (مع مَن يطوف).
(٣) جاء صدر البيت في كامل المبرّد على الشكل التالي: وأسهر ليلي مع العاكفين (المكان نفسه).
(٣) قال المبرّد: خارج الكَرْب، (المصدر نفسه، المكان نفس).
(٤) العقد الفريد، جـ ٦، ص ٩ - ١٠.

وهكذا حَسّن ابن عُيينة الحَسَن من الغناء وقبّح القبيح، وهذا يعني أنه لم يحكم على الأمور دون أن يغوص فيها، ويعرف المزيد عن مضامينها، الأمر الذي جعل أحكامه متعقّلة، وبالتالي جعل زهده وورعه[1] في الأمور الحياتية؛ يأتيان وفق ما يقرّ به المنطق السليم[2].

٣ ـ عناية ابن عُيينة بالقرآن الكريم:

إن الحديث عن عبادة ابن عُيينة وتقواه، وبالتالي زهده وورعه، يدفعنا للبحث عن موقفه المبدئي والعملي من القرآن الكريم، الذي ثبت أنه كان معنيّاً به عنايةً فائقةً، كما أخصّه بما يليق به من التقدير والاحترام، الأمر الذي جعل الرجل مميّزاً بين شيوخه وأقرانه، وقد نوّه ابن حبّان بعناية سفيان بتلك النواحي فقال: «كان سفيان ممّن عَنِيَ بعلم كتاب الله، وكثرة تلاوته له، والسهر فيه. . .»[3].

---

(١) يرى سفيان أن الورع على وجهين، ورع منصت: وهو الذي يعرفه العامّة، إذا سُئِلَ عمّا لا يعلم قال: لا أعلم، فلا يقول إلّا فيما يعلم، وورع منطق يلزمه الورع القولي، لأنه يعلم فلا يجد بدّاً من أن ينكر المنكر، ويأمر بالخير، ويُحسِن الحسن ويقبح القبيح. . . وهو أشدّ الورعين وأفضلهما. . .» (حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٨).

(٢) عن موقف أئمة الحديث من الغناء؛ راجع: «كتاب الياقوتة في الغناء واختلاف الناس في ذلك» (العقد الفريد، جـ ٦، ص ٣ وما بعدها).

(٣) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٥٠.

وتّضح اهتمامات سفيان بالقرآن من خلال أقواله فيه، والتي انصبت أول الأمر على لفت أنظار الناس إلى فضيلة القرآن والتمسّك به وبتعاليمه الإنسانية والخُلوقية، وبالتالي تلاوته بقلب خاشع وسليم، فقال: «لو طُهّرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله»[1] فهو المنهل الصافي الذي لا تملّ القلوب المؤمنة من التأمّل فيه، والتبحّر في أحكامه ومعانيه. وأضاف قوله: «مَن قرأ القرآن يُسأل عمّا يسأل عنه الأنبياء عليهم السلام إلّا تبليغ الرسالة»[2]، لأن المرء يصبح بعد ذلك على بيّنة من أمره بعد اطّلاعه على معظم حقوقه وواجباته. وختم سفيان حديثه بقوله: «والله لا تبلغوا ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحبّ إليكم من الله، فمَن أحبّ القرآن فقد أحبّ الله، أفقهوا ما يقال لكم»[3].

ولا ريب؛ أن عناية ابن عُيينة بالقرآن قد بدأت مبكرة، فذكرت بعض المصادر أنه انكبّ على حفظه وهو بعد في سنّ الطفولة[4]. وذكر صاحب طبقات القرّاء[5]: «أنه عرض القرآن على حميد بن قيس الأعرج وعبد الله بن كثير، وروى القراءة عنه سلام بن سليمان».

ويبدو؛ أن حفظه للسور والآيات القرآنية وإتقانه لهما، قد بلغ عنده مستوىً رفيعاً جدّاً، وقد حقّق من خلال ذلك شُهرة كبيرة، الأمر

(١) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨١.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٨، ٣٠٢.
(٤) تهذيب النووي، ص ٢٩٠.
(٥) طبقات القرّاء، جـ ١، ص ٣٠٨.

للذي جعله متفوّقاً على غيره من القرّاء، وقد أشاد الكسائي بتفوّقه بالرواية، أكان ذلك على صعيد رواية الحديث أو تلاوة القرآن، فقال: «ما رأيت أحداً يروي الحروف إلاّ وهو يخطىء فيها إلاّ ابن عُيينة»(١).

وإلى جانب حُسْن تلاوته لكتاب الله عزّ وجلّ وتفوّقه فيه؛ فقد كان معنيّاً بتفسيره وكشف غوامضه، وبشهادة كبار المحدّثين، فقد كان من أعلم الناس بذلك، قال عبد الله بن وهب: «ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله تعالى من ابن عُيينة»(٢). وفي مناسبه أخرى قال: «لا أعلم أحداً أعلم بتفسير القرآن من سفيان بن عُيينة»(٣). وقد أيّده في ذلك أحمد بن حنبل فقال: «ما رأيت أحداً من الفقهاء أعلم بالقرآن والسُّنن منه»(٤). ويرى ابن مهدي أنه كان متفوّقاً على الثّوري في معارف القرآن وغيره. قال نعيم بن حمّاد: قلت لعبد الرحمن بن مهدي: «أين ابن عُيينة من الثّوري؟ فقال: عند ابن عُيينة من معرفته بالقرآن وتفسيره الحديث، وغوصه على حروف متفرّقة، ما لم يكن عند الثّوري»(٥).

---

(١) طبقات القرّاء، جـ ١، ص ٣٠٨.

(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٢ ـ ١٨٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢٠.

(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣ وجـ ٤، ص ٢٢٧؛ العِبَر، جـ ١، ص ٣٢٦.

(٤) أعلام النبلاء، ٨، ص ٤٥٨؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.

(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٢؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤.

وقبل أن نستعرض تفسير ابن عُيينة لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ يجدر بنا أن نتطرّق إلى موقفه من قضية «خلق القرآن» التي هزّت أركان العالم الإسلامي آنذاك.

والثابت؛ أن سفيان كان قد رابط لأهل البِدَع الذين كانوا يُرَوِّجون لتلك الأباطيل التي شغلت المجتمع برمّته، وقد ظهر تصلّبه إزاء ذلك من خلال ردّه على تساؤلات الناس الذين اعتادوا ارتياد مجالسه. عن ذلك حدّث محمد بن منصور الجواز قال: «رأيتُ سُفيان بن عُيينة سأله رجل: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، منه خرج، وإليه يعودُ»[1].

وفي هذا الإطار روى أبو العباس السراج في تاريخه عن عبد الرحمن بن عفّان قال: «سمعتُ ابن عُيينة في السُّنّة التي أخذ فيها بشراً المريسي[2] بِمِنَى، فقام سفيان في المجلس مغضباً، فقال: لقد تكلموا في القدر والاعتزال، وأمرنا باجتناب القوم، رأينا علماءنا، هذا عمرو بن دينار، وهذا محمد بن المنكدر، حتى ذكر أيوب بن موسى، والأعمش، ومِسْعَراً، ما يعرفونه إلاّ كلامَ الله، ولا نعرفه إلاّ كلام الله، فمَن قال غير ذا، فعليه لعنة الله مرّتين، فما أشبه هذا بكلام النصارى فلا تُجالسوهم»[3].

(١) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٦٦.

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي، كان أبوه يهودياً، وأصله من بغداد، كان يقول بخلق القرآن في زمن الخليفة هارون الرشيد، فتوعده رشيد بقتله، فأقام متوارياً، وقيل إنه مات ببغداد سنة ٨٣٣/٢١٨. (تاريخ بغداد، جـ٧، ص ٥٦ ـ ٦٧).

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩٦؛ أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٩٦.

أ ـ من علمه بتفسير القرآن:

بعد التثبّت من شغف ابن عُيينة بكل ما يمتّ إلى القرآن بصلة، من المفيد أن نذكر بعض تفاسيره لآياته الكريمة، وهذا الأمر يشوقنا لمعرفة مصادره الأساسية التي اعتمدها خلال عمله، وقد أفادنا عن هذه الناحية ما صرّح به يحيى بن معين. فقال: «تفسير ابن عُيينة إنما أخذه عن مقاتل[1]، وكتاب ابن جريج أخذه من حرب فأخذ التفسير منهما»[2].

والملاحظ؛ أن اعترافات سفيان لم تكن صريحة بما يتعلّق بعلاقته بمقاتل بن سليمان فيروي حامد البلخي أنه قال: «أول من جالست من الناس مقاتل بن سليمان... فقال لي: إن كنت تريد التفسير فَسَلْ عن الكلبي[3]. قال: فقَدِمت الكوفة فسألت عن

(١) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني صاحب التفسير، اتّهم بالكذب والفسق، قال خارجة بن مصعب: «كان جهم ومقاتل عندنا فاسقين فاجرين». وقال ابن معين: «ليس بثقة». وقال البخاري «منكر الحديث»، وقال النسائي: «كذاب». يقال إن أصله من بلخ ثم انتقل إلى العراق فمات سنة ١٥٠/٧٦٧ (تهذيب ابن حجر، جـ ١٠، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٥).

(٢) تاريخ ابن معين، جـ ٢، ص ٣٨٣.

(٣) هو محمد بن السائب أبو النضر الكوفي النسّابة المفسّر يروي عنه السفيانان، وحمّاد بن سلمة وابن المبارك وابن جريج، وقد اتّهمه البعض بالكذب، وتركه يحيى وابن مهدي، وقد ضعّفه البعض لتشيّعه. مترجم في: (الجرح والتعديل، جـ ٧، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١، تهذيب ابن حجر، جـ ٩، ص ١٧٨ وما بعدها).

الكلبي، فقلت له: إن بمكة رجلاً يُحسِن الثناء عليك، قال: مَن هو؟ قلت: مقاتل بن سليمان فلم يحمده»[1].

وفي مناسبة أخرى نجده لا يُقرّ ولا يعترف بأنه يروي عن مقاتل في التفسير، وذلك حتى لا يُحرِج نفسه أمام كبار المحدّثين الذين رفضوا الرواية عن مقاتل وكذّبوه. قال نعيم بن حمّاد: «رأيت عند ابن عُيينة كتاباً لمقاتل: فقلت: يا أبا محمد تروي لمقاتل في التفسير؟ قال: لا، ولكن أستدلّ به وأستعين»[2].

مهما يكن من أمر، فمن تفسير سفيان لبعض الآيات من سورة النساء؛ تحدّث علي بن حرب فقال: سمعت سفيان بن عُيينة في قوله تعالى: ﴿ **والشهداءِ والصَّالحين** ﴾[3]، قال: «الصالحون: هم أصحاب الحديث»[4].

ومن سورة المائدة في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وتعاونوا على البرّ والتقوى** ﴾[5]، قال: «هو أن تعمل به، وتدعو إليه وتُعين وتدلّ عليه»[6].

ومن سورة الرعد، في قوله تعالى: ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية وبقدرها** ﴾[7]، قال: «أنزل من السماء قرآناً فاحتمله

---

(١) تهذيب ابن حجر، جـ ١٠، ص ٢٨١.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٠، ص ٢٧٩.
(٣) سورة النساء، آية: ١٩.
(٤) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٤٦٩.
(٥) سورة المائدة، آية: ٢.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٤.
(٧) سورة الرعد، آية: ١٧.

الرجال بعقولها»، ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾[1]. وهو قول أهل البِدَع والأهواء، ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[2]، وهو الحلال والحرام[3].

وعن سورة الأنبياء سُمِعَ يقول: «يقال لا إله إلّا الله في الآخرة بمنزلة الماء في الدنيا، لا يحيىٰ شيء في الدنيا إلّا على الماء، قال الله تعالى: ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون** ﴾[4]، فلا إله إلّا الله بمنزلة الماء في الدنيا، مَن لم تكن معه لا إله إلّا الله فهو ميت، ومَن كانت معه لا إله إلّا الله فهو حيّ»[5].

وسُئِلَ سفيان عن قوله تعالى: ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾[6]، قال: أنزل عليه القرآن بمكارم الأخلاق فهم الذين كانوا يُشرّفون بها ويفضل بعضهم بعضاً بها، من حُسْن الجِوار، ووفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، فقال: إنما جاءكم محمد (ﷺ) بمكارم أخلاقكم التي كنتم بها تُشرّفون وتُعظّمون، انظروا هل جاء بشيء مما كنتم تعيبون من الأخلاق القبيحة التي كنتم تعيبونها، فلم يقبح القبيح ولم يحسن الحسن،

(١) سورة الرعد، آية: ١٧.
(٢) الآية نفسها.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٧.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٢.
(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٠.

وقال الحسن بن أبي الحسن: «أمسك عليكم دينكم أخلاق القرآن»[1].

وقال في آية من سورة النور: «لأن يقال فيك الشرّ وليس فيك، خير من أن يقال فيك الخير وهو فيك»[2]، ثم تلا ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم** ﴾[3].

وسُئِلَ، من سورة النمل، عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[4]، قال: «العدل الإنصاف، والإحسان التفضّل»، وسُئِلَ لأيّ شيء سمّى الله عزّ وجلّ نفسه المؤمن؟ قال: «يؤمَن عذابه بالطاعة»[5]. وسُئِلَ عن المتّقين، فقل: «إنما سُمّوا المتّقين لأنهم اتّقوا ما لا يُتّقى»[6].

وتناول بعض الآيات من سورة «ق»، فعن قوله تعالى: ﴿ **الأوّاب الحفيظ** ﴾[7]، قال: «الذي لا يقدم من مجلسه حتى يستغفر الله عزّ وجلّ ويتوب»[8]. وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾[9]، قال: «ليس تكاد أبصارهم تسموا إلى شيء مما هم فيه

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٣) سورة النور، آية: ١١.
(٤) سورة النمل، آية: ٩٠.
(٥) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩١.
(٦) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٨٤.
(٧) سورة قَ، آية: ٣٢.
(٨) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٧٩.
(٩) سورة قَ، آية: ٣٥.

حتى يفتح لهم شيء يقال له «المزيد»، فإذا فتح ذلك، جاء شيء ليس بالذي كانوا فيه، فشُرِف عليهم فينادونه فيقولون: مَن أنت؟ فيقول: أنا من الذين قال الله: ﴿ ولدينا مزيد ﴾[1].

ب ـ إجاباته من وحي القرآن والحديث النبوي:

وأما بالنسبة لإجابات سفيان على تساؤلات الناس، والتي كانت تأتي مدعومة بالآيات القرآنية، فقد أمدّنا صاحب حلية الأولياء بالعديد منها، وهي تبيّن بصدق مدى تعمّقه بعلوم القرآن الكريم.

فعندما سُئِلَ عن صاحب البدعة قال: «ليس في الأرض صاحب بدعة إلّا وهو يجد ذلّة تغشاه، قال: وهي في كتاب الله، قالوا: وأين هي من كتاب الله؟ قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سيناً لهم غضب من ربّهم وذلّة في الحياة الدنيا** ﴾[2]. قالوا: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصّة. قال: كلا! اتلوا ما بعدها ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾[3]، فهي لكل مُفتَرٍ ومبتدع إلى يوم القيامة»[4].

وحينما سُئِلَ عن الكبائر قال[4]: «أكبر الكبائر الشّرك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله،

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٢.
(٣) الآية نفسها.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٠؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٨.

ثم تلا: ﴿ فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون ﴾[١]، ﴿ وأنه مَن يُشرِك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ﴾[٢]، ﴿ لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون ﴾[٣]، ﴿ ومَن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالّون ﴾[٤].

ولمّا سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿ تتجافى جُنُوبُهم عن المَضَاجِعِ يَدعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وطَمعاً ومِمّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ ﴾[٥]، قال: هي المكتوبة ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٦]، قال: القرآن ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ ولَقَدْ أتَينَاك سَبْعاً من المَثاني والقُرآن العظيم ﴾[٧]، إلى قوله: ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾[٨]. ثم دعّم رأيه بالحديث النبوي فقال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صدقة أفضل من قول»، وأضاف سفيان: «ولا قول أفضل من القرآن، ألا ترى أنه ليس شيء أفضل من قول لا إله إلّا الله، ولا قول أعظم ولا أشرّ من الشّرك» قال الله تعالى: ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾[٩]، وقال عزّ شأنه:

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٩.
(٢) سورة المائدة، آية: ٧٢.
(٣) سورة يوسف، آية: ٨٧.
(٤) سورة الحجر، آية: ٥٦.
(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.
(٦) سورة البقرة، آية: ٣.
(٧) سورة الحجر، آية: ٨٧.
(٨) سورة طه، آية: ١٣١.
(٩) الكهف، آية: ٥.

﴿تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشقّ الأرض﴾[1]، ثم ختم سفيان حديثه مستشهداً بحديث ابن مسعود: «ما من شيء أفضل من لسان صادق وهو قول: لا إلَه إلّا الله»[2].

وسُئِلَ عن قوله: «اللّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد». قال: «أكرم الله أمة محمد (ﷺ) فصلّى عليهم كما صلّى على الأنبياء، فقال: ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته﴾[3]. وقال للنبي (ﷺ): ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾[4]، والسكن من السكينة فصلّى عليهم كما صلّى على إبراهيم وعلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهؤلاء الأنبياء المخصُوصُون منهم، وعمّ الله هذه الأمّة بالصلاة وأدخلهم فيما دخل فيه نبيّهم (ﷺ)، ولم يدخل في شيء إلّا دخلت فيه أُمّته وتلا قوله: ﴿إن الله وملائكته يصلّون على النبي﴾[5]. وقال: ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته﴾[6]، وذكر قوله: ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ليغفر﴾[7]، إلى قوله: ﴿من تحتها

---

(١) سورة مريم، آية: ٩٠.

(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠١؛ والحديث رواه المتّقي الهندي في كنز العمّال رقم (١٦٣٢٤).

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

(٦) السورة نفسها، آية: ٤٣.

(٧) سورة الفتح، آية: ١.

الأنهار ﴾[1] القصة»[2].

وحينما سُئِلَ عن مُخالِفي القرآن قال: «مَن أُعطي القرآن فمدّ عينيه إلى شيء ممّا صغّر القرآن فقد خالف القرآن» ثم استشهد بالآيات الكريمة فقال: «ألم تسمع قوله تعالى: **﴿ ولا تمدّنّ عينك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾**[3] يعني القرآن»[4].

وعندما سُئِلَ عن قوله: «يوشك أن يأتي على الناس زمان أفضل عبادتهم التلاوم ويقال لهم النتنى» قال سفيان: ألا ترى أنه يبلغ بهم الكفر، إنما قال النتنى ولوم أنفسهم، فإذا كانوا عارفين بالحق فهو خير من أن يزيّن لهم سوء أعمالهم، ولكنهم قوم يعرفون القبيح فلا يترفعون عنه، وليس هذا كقولهم: **﴿ يا وَيْلَنَا إنّا كُنّا ظالمين ﴾**[5]. لأن هؤلاء إنما أقرّوا بالظلم حين رأوا العذاب **﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾**[6] فالظلم شرك، قال سفيان: «ومَن عصى الله فهو منتن، لأن المعصية نتن»[7].

---

(١) سورة الفتح، آية: ٦.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠١ - ٣٠٢.
(٣) سورة طه، آية: ١٣١.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠٣.
(٥) سورة الأنبياء، آية: ١٤.
(٦) سورة الملك، آية: ١١.
(٧) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

ولمّا قيل له: إن بشراً المريسي يقول: «إن الله تعالى لا يَرى يوم القيامة»، فقال: «قاتل الله الدُوَيبَّة، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ كلاَّ إنَّهُم عنْ ربِّهِم يَومئِذٍ لمحْجُوبُون ﴾[1]، فإذا احتجب عن الأولياء والأعداء، فأيُّ فضل للأولياء على الأعداء؟»[2].

وعن مجالس سفيان التي كانت تُعنى بتفسير آيات القرآن الكريم تحدّث عمر بن السكن فقال: كنت عند سفيان بن عُيينة فقام إليه رجل من أهل بغداد فقال؛ يا أبا محمد أخبرني عن قول مطرف: «لأن أُعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلي فأصبر» أو أحبّ إليك أم قول أخيه أبي العلاء: «اللّهمَّ رضيت لنفسي ما رضيت لي؟ قال: فسكت سكتة ثم قال: قول مطرف أحبّ إليّ. فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟ قال سفيان: إني قرأت القرآن فوجدت صفة سليمان (ع) مع العافية التي كان فيها ﴿ نعم العبد إنه أوّاب ﴾[3]، ووجدت صفة أيوب (ع) مع البلاء الذي كان فيه ﴿ نعم العبد إنه أوّاب﴾[4]، فاستوت الصفتان، وهذا مُعافى وهذا مُبتلي، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا، كانت العافية مع الشكر أحبّ إليّ من البلاء مع الصبر[5].

---

(١) سورة المطفّفين، آية: ١٥.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٦؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٨.
(٣) سورة صَ، آية: ٣٠.
(٤) السورة نفسها، آية: ٤٠.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٣.

ـ تفسيره لحديث رسول الله (ﷺ):

إن الحديث عن اهتمام ابن عُيينة بتفسير آيات القرآن الكريم، يدعونا لمعرفة مدى اهتمامه بتفسير الحديث النبوي، وبالتالي مقدرته وتفوّقه فيه.

فالواضح؛ من خلال أقوال الأئمة، أن سفيان كان مُلِمّاً إلماماً كبيراً بعلم الحديث وبكلّ ما يمتّ إليه بصلة، وبخاصة قضية تفسيره وجلي غوامضه، وتقريب معانيه إلى أذهان الناس بغية تفهّمه والعمل وفق السُّنّة النبوية الشريفة التي كان سفيان من أعلم الناس بها. قال الشافعي: «... ما رأيت أحداً أحسن لتفسبر الحديث منه»[1]. وقال أحمد بن حنبل: «ما رأيت أحداً كان أعلم بالسُّنن من سفيان بن عُيينة»[2] وقال ابن حبّان: «... كان ممّن عُنِيَ بعلم السُّنن وواظب على جمعها والتفقّه فيها إلى أن مات»[3].

والآن لا يسعنا إلّا أن نستعرض بعض شروحاته التي حفظتها المصادر كدليل على نبوغه في هذا المجال.

فكان يقول في تفسير الحديث: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ منّا، ومَن حمل علينا السلاح فليس منّا»[4]. من تأويله عليّ: أن المراد ليس هو على هدينا وحُسْن طريقتنا فقد أساء الأدب، والمراد أن يبقى

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٧.

(٢) العِبَر، جـ ١، ص ٣٢٦؛ اليافعي؛ مرآة الجنان، جـ ١، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٣) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٥٠.

(٤) رواه مسلم في الإيمان حديث (١٦٤) وأحمد في المسند، ـ٣، ص ٤٩٨.

تفسيره مسكوتاً ليكون أبلغ في الزجر عن هذه المعاصي[1].

وحدّث سفيان عن قلقه وسهره في البحث عن معاني الأحاديث فقال: كنت أتفكّر في معنى حديث «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم» إلى آخره[2].

فلم أقف عليه حتى رأيت أن قائلاً يقول: «الغني إذا نابه شيء التجأ إليه ـ إلى ماله وجاهه ـ، والفقير إذا نابه شيء لا يلتجىء إلّا إلى الله، فيبقى كل واحد مع مَن التجأ إليه، الغني مع مَن له الفقير مع مَن له»[3].

والمُلاحَظ أن أصحاب الحديث كانوا يُلِحّون عليه في أن يفسّر لهم ما يرتابون فيه من الأحاديث، وكان هو بدوره يشرح لهم ما يمكن شرحه ويتنصّل من ذلك في الأمور الحَرِجَة التي يجد نفسه إزاءها مكتوف اليدين. عن ذلك حدّث أحمد بن نصر فقال: سألت ابن عُيينة وجعلت ألحّ عليه، فقال: «دعني أتنفس» فقلت: كيف حديث عبد الله، عن النبي (ﷺ): «إن الله يَحملُ السمٰواتِ على أصْبَع»[4]. وحديث: «إنَّ قُلُوب العبادِ بين أُصْبُعَين مِن أصابع الرحمن»[5]. وحديث: «إن الله يَعْجَبُ أو يَضْحَكُ ممّن يَذْكُره في

(١) تهذيب النووي، ص٢٩٠؛ طبقات الشعراني، جـ١، ص٦٢.

(٢) تفرّد أبو نعيم بإخراجه في الحلية، جـ٨، ص ٢٥٠.

(٣) الكواكب الدرّيّة، جـ١، ص١١٨.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، ومسلم (٢٧٨٦) في أول صفة القيامة، والجنة والنار.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) في القدر.

الأسواق»[(١)]. فقال سفيان: «هي كما جاءت نُقرّ بها ونحدّث بها بلا كيف»[(٢)].

وكذلك كان موقفه من أحاديث الرؤية، فعندما قيل له: «هذه الأحاديث التي تُروَى في الرؤية؟ قال: «حقٌّ على ما سمعناها ممّن نثق به ونرضاه»[(٣)].

والجدير بالذكر؛ فإنه على الرغم من مقدرة ابن عُيينة بالمسائل الفقهية فقد كان يتنصل من الإجابة على تساؤلات الناس ويتمنّع عن إعطاء الفتاوى لهم، وقد تنبّه الشافعي لهذا الأمر، فقال: ما رأيت أحداً فيه من آلة الفُتيا ما في سفيان»[(٤)]. وقال أيضاً:

«ما رأيت أحداً أكفَّ عن الفُتيا منه. . .»[(٥)]، وتأكيداً لذلك قال علي بن المديني: «كان سفيانُ إذا سُئِلَ عن شيء يقول: لا أُحسِن، فنقول: مَن نسأل؟ فيقول: سَلِ العلماء، وسَل الله التوفيق»[(٦)].

وحدّث أحمد بن أبي داود قال: «صلّينا مع سفيان بن عُيينة على جنازة فسأله رجل عن مسألة، فقال: ما أحسن». وتحدّث أحمد

---

(١) أخرج أبو داود (٢٦٠٢).
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٦ ـ٤٦٧.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٨، ص ٤٦٦.
(٤) اليافعي، مرآة الجنان، جـ ١، ص ٤٦٢.
(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٧.
(٦) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٧٨.

عن مناسبة أخرى فقال: «سمعت سفيان بن عُيينة وسأله رجل في المسجد الحرام ونحن عنده جلوس: يا أبا محمد إنّا نغزوا أرض الروم فيخرج معنا الطاحونـــة، فقال: سَلْ عن هذا أهل الشام فإنهم أعلم به منّا»[1].

وأكد هذا الجانب مروان بن محمد فقال: «سمعت سفيان بن عُيينة، وسأله رجل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال له: يا أبا محمد إنها قد كانت، فقال له سفيان: فإذا قد كان قد كانت. وأنا لا أدري فإيش بعمل؟؟»[2].

إلى جانب ذلك؛ كان سفيان يحذِّر أصحابه من التفتـي، وأحياناً كان ينعتهم بصفات لاذعة ليكفّوا عن القيام بهذا العمل، عن ذلك حدّث مروان بن محمد، قال: سمعت سفيان بن عُيينة وقال لشيخ عنده ـ أو إلى جانبه ـ: «يا شيخ بلغني أنك تفتي في بلادك»، قال: نعم يا أبا محمد، قال: «أحمق والله»[3].

وعلى الرغم من تلك المواقف المتشددة عن سفيان فالثابت أنه كان يفتـي في بعض الأحيان. قال سعيد بن منصور: قَـدِمَ سفيان بن عُيينة مكة وفيها رجل من آل المنكدر يفتي، فقعد سفيان يفتي، فقال المنكدري: تُرى مَن هذا الذي قَدِمَ بلادنا يفتي؟ فكتب إليه سفيان بن عُيينة: حدّثني عمرو بن دينار عن ابن عباس قال:

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، المكان نفسه.

«مكتوب في التوراة عدوّي الذي يعمل عملي» فكفّ عنه المنكدري[1].

والملاحظ؛ أن سفيان كان يبذل جهده على أن تأتي إجاباته مختصرة، قال ابن قتيبة: «كان من أشدّ الناس اختصاراً، سُئِلَ عن قول طاوس في زكاة السمك والجراد، فقال: زكاته صيده»[2].

بالنتيجة؛ إن تلك الحقائق التي أوردناها عن عبادة بن عُيينة وتقواه، ومن ثم زهده وورعه، وعنايته بالقرآن الكريم، وما ترتب على ذلك؛ من تفسيره للسّور والآيات، وإجاباته على تساؤلات الناس؛ استناداً إلى كتاب الله عزّ وجلّ والحديث الشريف، كلّها تُظهِر أن الرجل كان عالِماً متقناً، وفقيهاً متبحّراً في غواض صناعته، وقد توّج ذلك كله، بعبادة مخلصة، وزهد وورع نقيّين أورثاه بحق شفافية متناهية جعلته مَحَطّ أنظار مُعاصريه والأجيال المتعاقبة.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٢.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٣.

الفصل الخامس

أواخر نشاطات ابن عُيينة ونهايته

١ ـ نشاطه الاجتماعي والسياسي:

أ ـ دوره الاجتماعي: (أقوال وحِكَم ونصائح):

يتوضّح الدور الاجتماعي لابن عُيينة من خلال مواقفه النبيلة والرائدة، والتي تستشفّ من أقواله السديدة، وحِكَمه الصائبة، ونصائحه الرشيدة.

ولا ريب؛ أن أقوال الرجال تعبّر بصدق عن الواقع الذي عايشوه، وتصوّر حقيقة المُعاناة التي تعترضهم خلال مسيرتهم في الحياة. وأما حِكَمهم؛ فهي الفلسفة الواقعية لمبادئهم، وثمرة الصراعات والتجارب التي مرّوا فيها خلال تفاعلهم مع مجتمع عصرهم بما فيه من خير وشرّ، وبالتالي مدى توافق تلك الأمور مع ذاتهم الإنسانية وما تحمله من مبادىء وقِيم. ويبلغ العطاء غايته إذا ما تُرجِمَت تلك الأقوال والحِكَم إلى نصائح صادقة تأخذ بيد الآخرين قبل وقوعهم في المنزلقات.

وعسانا؛ من خلال استعراض أقوال وحِكَم ابن عُيينة، أن نتمكّن من أخذ فكرة عن المصاعب التي كانت تعترض مسيرته،

فكوّنت لديه منهجاً مثالياً أخذ من خلاله يحثّ مُعاصِرِيه لاتّباعه في تعاملهم مع الآخرين وذلك للمحافظة على المبادىء العامّة.

والذي يزيد في أهمية هذا الجانب؛ أن سفيان كان يعدّ من حكماء أصحاب الحديث[1]. وقد لاحظ ذلك روّاد مجالسه الذين اعتادوا أن يسمعوا منه خلال دروسه، المواعظ والحِكَم والتعاليم الاجتماعية، التي تشكّل في مجموعها ناموساً للحياة المُثلى.

والمُلاحظ؛ أن سفيان كان يقدّم النصيحة للناس ويدعوهم في الوقت نفسه إلى نصح الآخرين «لأن الدين النصيحة» من هذا المنطلق كان يقول: «عليك بالنصح لله في خلقه فإنك لن تلقاه بعمل أفضل منه»[2]. وفي يقينه أن النفس الخيّرة تكون مُهَيّئة للعمل الصالح، لذا فهي تكتفي بالقليل من الموعظة، فقال: «العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة لم يزدد على الكثرة منها إلاّ شرّاً»[3].

ويرى ابن عُيينة أن النصيحة يجب أن تُؤدّى في رفق ولين حتى تلاقي القبول الحسن عند الآخرين، وأما إذا جاءت بأسلوب لاذع أو ساخر فسوف تُقَابَل بالاعتراض والرفض. وقد أعطى سفيان على ذلك مثلاً ليثبت لأصحابه أنه على حق فيما يقوله، فذكر أنه قال لِمسعَر بن كدام: «أتحبّ أن يجيئك رجل فيخبرك بعيوبك؟ قال: إن

(١) ثقات العجلي، ص ١٩٤ ـ ١٩٥؛ تهذيب النووي، ص ٢٩٠.
(٢) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٧.

كان ناصحاً فنعم، وإن كان إنما يريد أن يؤذيني ويوبّخني فلا»[1].

انطلاقاً من هذه المبادىء راح سفيان ينشر رسالته بين الناس، ويـأخذ بيـدهم في زحمة العـادات الفاسـدة التي استشرت في المجتمع، فكان، والحالة هذه، معلّماً في إرشاد الناس وإسداء النصيحة لهم، فكان يحذّرهم من الغيبة، والحسـد، والطمـع، والكِبَر، ويدعوهم إلى التواضع، والتمسّك بالآداب العامّة.

فعندما تحدّث عن الغيبة قال: «الغيبة أشدّ من الدّين، الدين يقضي والغيبة لا تقضي»[2] ثم أطلقها صرخة مدوية في مجلسه فقال: «اسمعوا ما يقال لكم فـإنه أنفـع لكم من الحديث ولـو أن رجلاً أصاب من مال رجلٍ شيئاً. ثم تورّع عنه بعد موته فجاء به إلى ورثته لكنّا نرى أن ذلك كفّارة له، ولو أن رجلاً أصاب في عرض رجل شيئاً فتورّع عنه بعدٍ موته فجاء إلى ورثته، وإلى جميع أهل الأرض فجعلوه في حِلٍّ ما كان في حل، (فعرضِ المؤمن أشدّ من ماله)، افقِهوا ما يقال لكم»[3]. وقيل إنه سمع رجلاً يتبذأ على رفقائه فقال: «إن لكل رفقاء رفقة كلب، فإن استطعت أن لا تكونه فافعل»[4]، فهو يركّز في ذلك على التمسّك بالآداب وحُسْن المعاملة.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٥.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٨؛ قـابل: طبقـات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٨.

بعد ذلك دعاهم إلى التحلّي بنقاء السريرة وطهارة النفس حتى يبلغوا أعلى الدرجات في سُلّم الإنسانية فقال: «إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور»[1]. وعن صدق السريرة قال أيضاً: «مَن تزيّن للناس بشيء يعلم الله منه غيره شانه الله»[2].

ثم تناول موضوع الحسد فقال: «الغلّ هو الحسد، فما خرج منه فهو الشرّ، وما بقي منه فهو الغلّ، وليس يسلم أحد أن يكون فيه شيء من الحسد»[3].

وعن آفة الطمع قال: «خصلتان يعسر علاجهما: ترك الطمع فيما بأيدي الناس، وإخلاص العمل لله»[4]. بعد ذلك عرف الاستكبار ودعا إلى الابتعاد عنه فقال: «مَن رأى أنه خير من غيره فقد استكبر، وذلك أن إبليس إنما منعه من السجود لآدم استكباره»[5]. وأضاف قوله: «مَن كانت معصيتُه في الشهوة فارجُ له المغفرة، ومَن كانت معصيته في الكِبَر، فاخشى على صاحبه اللعنة،

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ١٥٥؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧ - ١١٨.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٤.
(٤) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢؛ الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧.
(٥) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٥؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٨.

فإن آدم عصى مشتهياً فغُفِرَ له، وإبليس عصى متكبّراً فلُعِن»[١].
وقال: «دع الكِبَر والفخر، واذكر طول الثواء في القبر»[٢].

ثم دعا الناس إلى التواضع والبُعْد عن حبّ الشّهرة والمدح فقال: «إنما عُرِفَ القوم لمحبتهم أن لا يعرفوا، ولو أحبّوا أن يعرفوا ما عرفوا»[٣] وقال في المدح: «ليس يضرّ المدح مَن عرف نفسه»[٤]. وفي آداب الكلام قال: «إذا أعجبك الصمت فتكلّم، وإذا أعجبك الكلام فاسكت»[٥].

بعد ذلك تعرّض سفيان لموضوع مُعاشرة الناس، فحدّد الأُسس التي ينبغي الأخذ بها عند اختيار الصّحبة، حتى لا نقع ضحيّة سوء اختيارنا. أما إذا أعيانا البحث عنهم فما علينا إلّا الاستئناس بالوحدة. فقال: «لا يغرّنّك مَن اغترّ بالله، فمدحك بما تعلم من نفسك خلافه، فإنه ما من أحد يقول في رجل شيئاً من الخير إذا رضي إلّا قال مثله من الشرّ إذا سخط، فاستأنس بالوحشة عن جلساء السّوء»[٦]. وقال أيضاً: «مَن لا تنتفع به فلا عليك أن

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦١؛ قابل: حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٢؛ صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٥.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٣.
(٣) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٧.
(٤) صفة الصفوة، جـ ٢، ص ١٥٧.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨١.
(٦) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.

تعرفه»[1]. وقال: «دعوا المرء لقلّة خيره»[2].

وتحدّث عن الأصدقاء فقال: «إن يكون لك عدوّ صالح خير من أن يكون لك صديق فاسد، لأن العدوّ الصالح يحجزه إيمانه أن يؤذيك أو ينالك بما تكره، والصديق الفاسد لا يبالي ما نال منك»[3]

وإلى جانب نصائحه التي كان يبلغها بطريقة مباشرة، فكان أحياناً يكتب إلى بعض أصحابه ناصحاً إيّاهم في أمر أنفسهم، فكتب مرة إلى أخٍ له:

«أما آن لك يا أخي أن تستوحش من الناس، ولقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جنّ عن معارفه، وصار كأنه مختلط العقل من شدّة تأهّبه للموت، وكان إذا أعطاه الناس شيئاً يقول: أعطوه فلان فإنه أحوج منّي»[4].

ولعلّ سفيان كان متأثّراً بسِيرة مَن سبقه من الأئمة الأعلام وقد عبّر هو عن ذلك. فقال: «قال لي الثّوري في اليقظة في حياته وفي المنام بعد مماته: (أقلل من معرفة الناس، فإن التخلّص منهم شديد)[5]. وكان يردّ قول مُساور الورّاق: «إنما تطيب المجالس بخفّة الجلساء»[6].

(١) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨١.
(٣) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(٤) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.
(٥) الكواكب الدرّيّة، جـ ١، ص ١١٨.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٩.

ثم ختم الحديث عن هذه الفئة بالنصيحة التي أسداها إليه أحد الزّهّاد فقال: قال لي بشر بن منصور الزاهد: «يا سفيان أقلِل من معرفة الناس، لعلّه أن يكون في القيامة غداً أقلّ لفضيحتك إذا نُودِيَ عليك بسوء أعمالك»(١).

- وبالمقابل كان يردّ في مجالسه أقوال الصحابة دائمة الحديث الذين كانوا يدعون إلى صِلَة الإخوان والتحبّب إليهم، فَرَوى عن سعد بن أبي وقّاص قوله: «برّ الإخوان حصن من عداوتهم»(٢). وتحدّث عن رأي محمد بن المنكدر في هذا الموضوع فقال: «قيل لمحمد بن المنكدر: ما بقي من لذّتك؟ قال: التقاء الإخوان، وإدخال السرور عليهم»، وقال أيضاً قيل لابن المنكدر: «ما بقي مما تستلذّ؟ قال: الإفضال على الإخوان»(٣).

وإذا كان سفيان حائراً بين مقاطعة الناس التي دعاه إليها سفيان الثّوري وبشر بن منصور، وبين الإقبال على الإخوان والإغداق عليهم وفق ما يرى ابن المنكدر فإننا نجده واضحاً في دعوته إلى مُجالسة الحكماء. فقال: «جالس الحكماء فإن مجالستهم غنيمة، وصحبتهم سليمة ومؤاخاتهم كريمة»(٤).

وفي يقينه؛ أنه إذا كان لا بدّ للناس من صحبة، وهذا شأنهم،

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٩٧.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٤.

فإن ذلك لا يعني أن يكشفوا كل أُمورهم أمام الآخرين لأن للأسرار حُرمة يجب المحافظة عليها حتى لا نفسد أمرنا، ولأن الكثير من التشهيرات التي يتعرّض لها المرء تعود إلى إفشاء سرّه. لهذا قال: «إن للأنبياء (ع) سرّ، وللعلماء سرّ، وإن للملوك سرّ، فلو أن الأنبياء (ع) أظهروا أسرارهم للعامّة لفسدت النبوّة، ولو أن العلماء أظهروا سرّهم للعامّة لفسدت عليهم، ولو أن الملوك أظهروا سرّهم للعامّة لفسد مُلكهم»[1]. وبالتالي إذا عامّة الناس أظهروا أسرارهم للآخرين لشهّروا بأنفسهم، وهذا ليس من الكياسة بمكان.

بالإضافة إلى ذلك، لم ينسَ سفيان نفسه بأنه يقوم بدور المُصلِح الاجتماعي الذي وهب نفسه لخدمة أبناء البشر، لهذا كان لا يفترّ عن دعوة الناس إلى التآخي، وعدم أخذ حقوقهم بالخصومة لأنها تفسد العلاقات الإنسانية. فقال: «إذا لم تصل إلى حقّك إلّا بالخصومة والسلطان فدعه لما ترجو من سلامة دينك»[2].

وهكذا لم يبخل ابن عُيينة يوماً في أن يجود بالنصائح والأقوال السديدة، والحِكَم البليغة التي رُصِّعت بها كتب التراجم والطبقات. فكان يقول في الأيام: الأيام ثلاثة: فأمس حكيمٌ مؤدّب ترك حكمته وأبقاها عليك، واليوم صديق مودِّع كان عنك طويل الغيبة حتى أتاك ولم تأتِه، وهو عنك سريع الظّعن، وغداً لا تدري أتكون من أهله أو لا تكون»[3]

---

(١) طبقات الشعراني، جـ ١، ص ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٣) صفة الصفوة، جـ ١، ص ١٥٧.

ب ـ دوره السياسي: (علاقته بالخلفاء والأمراء العباسيين):

الثابت لدينا؛ أن ابن عُيينة لم يكن يبغي منصباً من مناصب الدولة، ولم ينشد عطاءً من بيت مال المسلمين، لهذا فإن دوره السياسي كان محصوراً في دخوله على الخلفاء والأمراء، ومناشدته إياهم في أمر الأمة؛ رغبة منه في الأمر والنهي اللذين تدعو إليهما الشرائع السماوية.

والواضح؛ أن الأئمة الفقهاء وسائر رجال الدين كانوا قد انقسموا على أنفسهم بخصوص التعاطي مع كبار القوم إلى ثلاث فئات، فمنهم مَن حرّم الدخول على أصحاب الشأن أمثال الإمام سفيان الثّوري[1]، والإمام عبد الله بن المبارك[2]، ومنهم مَن حلّل دخول الحكّام على العلماء للتشاور معهم في أمر الأمة وأخذ النصيحة، أمثال الإمام حمّاد بن سلمة[3]، والفريق الأخير لم يجد أفراده أيّ حرج في دخولهم على الخلفاء والوزراء والأمراء.

وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التي واجهت عناصر الفريق الأخير، فقد كان سفيان بن عُيينة من بين علماء هذه الفئة، وفي يقينه أنه يقدّم، في دخوله على أولى الأمر، خدمة كبيرة لأبناء مجتمعه، بعد أن يرفع مُعاناتهم على الحكّام، ويتعرّض للفساد المستشري بين الوُلاة: مما يعود بالفائدة على الجميع.

---

(١) انظر: الإمام سفيان الثّوري سيّد الحفّاظ، ص ١٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر: الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٣) عبد الرحمن بن سنبط الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك مختصر سِيَر الملوك، ص ٧٤، القدس، مط. مارجيوس، ١٨٨٥.

والملاحظ؛ أن ابن عُيينة كان يتمثّل في تعامله مع الحكّام، بالسلف الصالح كأبي حازم[1]، وأبي إسحاق الفزاري[2]، لهذا كان يحدّث أصحابه ورُوّاد مجالسه عن سيرتهما مع خلفاء بني أميّة وبني العباس، عن ذلك حدّث أبو نعيم بسنده عن وكيع بن الجراح الذي سمع سفيان يقول: «إن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم: ارفع إليّ حاجتك، قال: (أيهات، أيهات قد رفعتها إلى مَن لا تُخْتَزَن الحوائج دونه، فما أعطاني منها قنعت، وما زوى عنّي رضيت). قال سفيان: ودخل أبو حازم على أمير المدينة فقال له تكلّم فقال له: (انظر الناس ببابك إن أدنيت أهل الخير ذهب أهل الشرّ، وإن أدنيت أهل الشرّ ذهب أهل الخير)[3].

وحدّث شاهد ثقة أنه سمع سفيان يقول: «قال هارون ـ الرشيد ـ أمير المؤمنين لأبي إسحاق الفزاري: (أيها الشيخ، إنك في موضع من العرب)، قال: إن ذلك لن يغني عنّي من الله شيئاً يوم القيامة»[4].

ولعلّ ابن عُيينة يبغي من تلك الروايات، أن ينبّه النقّاد إلى أنه ليس كل مَن دخل على السلاطين أصبح موضع شُبهَة، وإنما

---

(١) هو سلمة بن دينار أبو حازم الأعرج التمار المدني، وثّقه العجلي والنسائي وغيرهما، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٤٣).

(٢) هو إبراهيم بن محمد أبو إسحاق الفزاري، متفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، يقال إنه أمر السلطان يوماً ونهاه فضربه مائة سوط. مترجم في: (ثقات العجلي، ص ٥٤؛ التاريخ الكبير، ج ١، ص ٣٢١).

(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٦.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨٧.

الدخول عليهم بقلب سليم، وقول كلمة حق تهدف إلى إصلاح رأس الأمة، خير من الفرار من تحمّل المسؤولية، من هذا المنطلق دخل ابن عُيينة على الخلفاء أمثال: هارون الرشيد وعلى الأمراء كمعن بن زائدة.

حدّث صالح بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال: «دخل سفيان بن عُيينة على معن بن زائدة وهو ـ أمير ـ باليمن[1]، ولم يكن سفيان تلطخ بعد بشيء من أمر السلطان، فجعل بعضه ويذكر له أمر المسلمين، فجعل معن يقول له: أبوهم أنت؟ أخوهم أنت؟»[2].

والملاحظ، أن سفيان كان من أصحاب الرأي الحرّ والجريء؛ لذا كان لا يتورّع من أن يُدلي برأيه أمام أصحابه وفي مجالسه العامرة بطلابه، فسُمِع يقول: «ما شيء أضرّ عليكم من ملوك السوء، وعلم لا يُعمَل به»[3]. وحدّث ابن أبي عمر فقال: «كنّا عند سفيان بن عُيينة فذكروا الفضل بن الربيع[4] ودهاءه فأنشأ سفيان يقول:

(١) لعلّ ذلك اللقاء حصل ما بين سنة ١٥٠/٧٦٧ أو سنة ١٥٢/٧٦٩ لأن ابن عُيينة رحل إلى اليمن في هاتين المرتين استناداً إلى ما صرّح به ابن سعد في طبقاته. (جـ ٩، ص ٤٩٧).

(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٣؛ قابل أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٥٩؛ وتذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٣.

(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨٧.

(٤) هو أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس، كان يخلف أباه الربيع في حجابة المنصور وخدم الرشيد ثم استوزره، ولما وَلِيَ الأمين أقرّه على وزارته ثم أهمل في عهد المأمون حتى مات بطوس سنة ٢٠٨/ ٨٢٣، عن سُيرته؛ انظر: الفخري ص ٢١١؛ أعلام الزركلي، جـ ٥، ص ١٤٨.

كـم مـن قـوي قـوي فـي تـقـلّبـه
مهـذب الـرأي عنـه الـرزق منحـرف
وكم ضعيف ضعيـف العـقـل مختلط
كـأنـه من خليـج البحـر يغتـرف»[1]

وعلى الرغم من نكبة هارون الرشيد للبرامكة[2]، وتهديده كلّ مَن يذكرهم بالخير، فقد اعترف سفيان بفضل جعفر البرمكي عليه وقال رأيه فيه بكل صراحة.

روى صاحب شذرات الذهب، أنه لمّا بلغ ابن عُيينة قتل جعفر البرمكي[3] سنة ١٨٧/٨٠٣، حوّل وجهه إلى القِبلة وقال: «اللّهمَّ إنه كان قد كفاني مؤونة الدنيا؛ فاكفه مؤونة الآخرة»[4].

وأما بالنسبة لعلاقة ابن عُيينة بالخليفة هارون الرشيد فقد اختلفت الآراء حول ذلك، ففي حين تذكر بعض الروايات أن الخليفة لم يكن راضٍ عنه وعن تواضعه له، نجده في رواية أخرى يثني عليه ويرفع من قدره ويذكره بكل خير، عن ذلـك حدّث الفضيل بن الربيع قال:

«حجّ أمير المؤمنين هارون الرشيد. فبينا أنا نائم بمكة إذ سمعت قَرعَ الباب، فقلت: مَن هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧٦.
(٢) عن نكبة البرامكة؛ انظر: الكامل في التاريخ، جـ ٦، ص ١٧٥ وما بعدها.
(٣) عن سيرة جعفر البرمكي؛ انظر: الفخري، ص ٢٠٥، وما بعدها.
(٤) ابن العماد، جـ ١، ص ٣١٥.

فخرجت مُسرِعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت لي لأتيتك. فقال: (ويحك، قد حلّ في نفسي سيء، فانظر لي رجلاً أسأله). فقلت: ههٰنا سفيان بن عُيينة. قال: (امضِ بنا إليه). فـأتيناه، فقرعت الباب، فقال: مَن ذا؟ قلت: أجبْ أمير المؤمنين! فخرج مُسرِعاً، فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إليّ لأتيتك. فقال له: (خذ لما جئناك له ـ رحمك الله ـ). فحدّثه ساعة، ثم قال له: عليك دَيْن؟ قال: نعم. قال اقضِ دَينَهُ. فلما خرجنا، قال: (ما أغنى عنّي صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله). فقصدا عبد الرزاق بن همّام، ثم الفضيل بن عِياض[1].

من جهة أخرى؛ ذُكِرَ أن الرشيد وجّه إلى مالك بن أنس في السنة التي حجّ فيها وهي سنة ١٧٩ / ٧٩٥، ارسل إليه ليمثل بين يديه ويسمعه شيئاً من الحديث فقال مالك: «إنَّ العلم يُؤتى». فسار الرشيد إلى منزل مالك فاستند معه إلى الجدار فقال مالك: «يا أمير المؤمنين مَن أجلّ اللهِ تعالى أجلَّ العلم». فقام الرشيدُ وجلس بين يدي مالك وكلّمه، وسمع منه عدّة أحاديث عن رسول الله (ﷺ). ثم أرسل إلى سفيان بن عُيينة فأتاه وقعد بين يدي الرشيد وحدّثه فقال الرشيد بعد ذلك: «يا مالك تواضعنا لعِلْمِك فانتفعنا به. وتواضع لنا عِلْمُ سفيان فلم ننتفع به»[2].

وإذا صحّت هذه الرواية؛ فباعتقادي أن الحكّام كانوا يفضّلون أن يستبقوا دخول العلماء عليهم، وذلك لإظهار نواياهم الخيّرةـ

(١) ابن قدامة المقدسي، كتاب التوّابين، ص ١٥٧ وما بعدها.
(٢) العيون والحدائق، جـ٣، ص ٢٩٨.

ولفت أنظار الناس إلى أنهم يجلّون العلم وأهله، وبذلك ينالون الحظوة لدى رعيّتهم، الذين سرعان ما يتناقلون أخبارهم ويتناسون الكثير من أخطائهم.

مهما يكن من أمر؛ فإنه لدينا رواية أخرى يرويها الخطيب البغدادي بسنده عن أبي الربيع النخّاس؛ تبيّن بوضوح أهمية ابن عُيينة عند الخليفة هارن الرشيد.

قال أبو الربيع: «تلقيت هارون أمير المؤمنين فسألني عن عليّة بني هاشم، ثم قال لي: (ما فعل سيّد الناس)؟. قال: قلت: يا أمير المؤمنين ومَن سيّد الناس غيرك؟ قال: (سيّد الناس سفيان بن عُيينة)[1].

فهذه هي الصورة التي احتفظت بها المصادر عن ابن عُيينة فهي وإن كانت مختصرة؛ فإنها تعطينا فكرة مقبولة عن علاقة الرجل بالوجهاء، وتظهر بصدق حقيقة نواياه من مخالطة حكّام الأمة.

٢ ـ نهاية ابن عُيينة وتقويمه:

أ ـ وفـــاته:

بعد حياة مديدة، ومليئة بالعطاء والإخلاص لحديث رسول الله (ﷺ) ولأبناء الأمة، لاحت النهاية أمام ابن عُيينة، وكانت تلك المرحلة من أصعب مراحل حياته، فقد وجد نفسه وحيداً أمام طلاب الحديث بعد أن مات شيوخه وأقرانه، فكان عليه والحالة هذه، أن

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٩.

يتحمّل عبء المحافظة على نقاوة الحديث؛ وبالتالي نشره بين الناس وتفسيره لهم. والرواية التالية تترجم بصدق حالة سفيان آنذاك.

ـ حدّث العباس الترفقي فقال: «خرج علينا سفيان بن عُيينة يوماً فنظر إلى أصحاب الحديث فقال: أفيكم أحد من أهل مصر؟ فقالوا: نعم! فقال: ما فعل فيكم الليث بن سعد؟[1]. فقالوا: توفي، فقال: أفيكم أحد من أهل الرملة؟ فقالوا: نعم! فقال: ما فعل ضمرة بن ربيعة الرملي؟[2]. قالوا: توفي! قال: هل فيكم أحد من أهل حمص؟ قالوا: نعم! قال: ما فعل بقية بن الوليد؟[3]. قالوا: توفي، قال: هل فيكم أحد من أهل دمشق؟ قالوا: نعم! قال: ما فعل

(١) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث الإمام المصري: متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، توفي سنة ١٩٤/٨١٠، عن سيرته؛ انظر: (تاريخ أسماء الثقات، ص ٢٧٥؛ تهذيب ابن حجر، جـ٨، ص ٤٥٩).

(٢) هو ضمرة بن ربيعة، أبو عبد الله الرملي، وثّقه أحمد بن حنبل وقال عنه: رجل صالح الحديث، لم يكن بالشام رجل يشبهه توفي سنة ٢٠٢/٨١٧. وبما أن وفاة ضمرة كانت في هذه السنة فهذا يعني أن اسمه قد أُقحِمَ في تلك الرواية. مترجم في: تاريخ أسماء الثقات، ص ١٧٨؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٣٥٣؛ طبقات السيوطي، ص ١٥٤.

(٣) هو بقية بن الوليد الحمصي، الإمام الحافظ، محدّث الشام، هو ثقة إذا حدّث عن المعروفين، توفي سنة ١٩٧/٨١٢. انظر: (تاريخ بغداد، جـ ٧، ص ١٢٣؛ تذكرة الحفّاظ؛ جـ ١، ص ٢٨٩).

الوليد بن مسلم؟[١] قالوا: توفي، فقال: هل فيكم أحد من أهل قيسارية؟ قالوا: نعم! فقال: ما فعل محمد بن يوسف الفريابي؟[٢] قالوا: توفي! قال: فبكى طويلاً ثم أنشد يقول:

خَلَت الدِّيارُ فَسُدتَ غَيْرَ مُسَوَّد
ومِنَ الشَّقاء تَفَرُّدِي بالسُّؤدد[٣]

وقد أكد يحيى بن سعيد وحدة سفيان في أواخر أيامه فقال: «ما بقي من معلميَّ الذين تعلّمت منهم غير سفيان بن عُيينة»[٤].

ولعلّ ابن عُيينة كان على علمٍ مُسبَق بأنه سوف يعمّر إلى ما شاء الله. فيذكر هو رواية عن نفسه فيقول: «رأيت كأن أسناني كلها سقطت. فذكرتُ ذلك للزهري فقال: تموتُ أسنانُك، وتبقى أنت، قال: فماتت أسناني وبقيت أنا، فجعل الله كل عدوٍّ لي محدّثاً»[٥]. ولعلّه كان مُستاءً من تردّي أوضاع أصحاب الحديث في تلك الآونة.

---

(١) هو الوليد بن مسلم الدمشقي، متّفق على توثيقه، روى عن الأوزاعي ومالك والثّوري وعنه الليث وأحمد وابن المديني، مات سنة ١٩٤/ ٨١٠. (مترجم في: تهذيب ابن حجر، جـ ١١، ص ١٥١؛ طبقات الحفّاظ، ص ١٣٢).

(٢) من سكان قيسارية الشام، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، توفي سنة ٢١٢/ ٨٢٧. (ذكره العجلي في ثقاته ص ٤١٦؛ وترجمه ابن حجر في التهذيب، جـ ٩، ص ٥٣٥).

(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٩٠ - ٢٩١؛ قابل: تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٠.

(٥) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٧٨؛ تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٦٤؛ الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٢٨١.

وقد علّق الذهبي على تلك الرواية بقوله: «هذا من شدّة ما كان يلقى من ازدحام أصحاب الحديث عليه حتى يُبرّحوه»[1].

مهما يكن من أمر؛ فقد كانت أمنية ابن عُيينة أن يعيش مكفيّاً، ويموت فقيراً لا يربطه شيئاً بهذه الدنيا، فسمعه محمد بن النَعمان يقول: «أُحبّ للرجل أن يعيش عيش الأغنياء، ويموت موت الفقراء». ثم قال بأسىً: «وقلّ ما يكون هذا»[2].

والحقيقة، أننا لا نعرف شيئاً عن تَرِكَة ابن عُيينة؛ حتى وإن كانت تلك التَرِكَة لا تتعدّى ثياب بدنه وأدواته الخاصّة، وسائر مقتنياته؛ بما فيها وسيلة نقله. والأهمّ من ذلك كله، كتبه التي تتعلّق بعلم الحديث وبعض العلوم التي كانت تستهويه، وذلك أُسوةً بغيره من أئمة رجال الحديث كالثوري[3] وشُعبة بن الحجّاج[4].

والثابت لدينا؛ أن سفيان قد توفي بمكة[5] يوم السبت غرّة رجب سنة ١٩٨/٨١٣[6] ودُفن بالحَجُوْن[7] بعد أن عاش إحدى

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٠.

(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠٤.

(٣) عن تَرِكَة الثّوري؛ انظر: الإمام سفيان الثّوري سيّد الحفّاظ، ص ٢٠٢.

(٤) عن وصية شُعبة؛ انظر: الإمام شُعبة بن الحجّاج سيّد المحدّثين، ص ١٨٢.

(٥) الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٠١؛ العيون والحدائق، جـ ٣، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٦) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٤ تهذيب النووي، ص ٢٩٠؛ طبقات القرّاء، جـ ١، ص ٣٠٨.

(٧) الحَجون: جبل بأعلى مكة عند مدافن أهلها، وله ذكر في الأشعار، (وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٣).

وتسعين سنة[1] وذكر اليافعي أن قبره بمكة معروف مكتوب عليه اسمه بالخط الكوفي[2].

وقد أمدّنا ابن سعد بتفاصيل عن نهاية ابن عُيينة مستنداً في ذلك إلى رواية الحسن بن عمران بن عُيينة بن أبي عمران ابن أخي سفيان الذي قال: «حججتُ مع عمّي سفيان آخر حجّة حجّها سنة سبع وتسعين ومائة (١٩٧/٨١٢)، فلما كنّا بجمع وصلّى استلقى على فراشه ثم قال: (قد وافيت هذا الموضع سبعين عاماً[3]، أقول في كل سنة: اللّهمَّ لا تجعله آخر العهد في هذا المكان، وإني قد استحييت الله من كثرة ما أسأله ذلك). فرجع فتوفّي في السنة الداخلة يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمانٍ وتسعين ومائة (١٩٨/٨١٣) ودفن بالحجون»[4].

وفي يقيني أن عام ١٩٨/٨١٣ كان من أشدّ الأعوام وأقساها على أئمة الحديث، حيث افتقد فيه العالم الإسلامي خيرة العلماء، والبقية الصالحة منهم، فذكر المؤرّخون أنه توفّي فيها: سفيان بن عُيينة، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيىٰ بن سعيد القطّان[5]،

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٧٤؛ العِبَر، جـ ١، ص ٣٢٦.

(٢) مرآة الجنان جـ ١، ص ٤٦٢.

(٣) في موضع آخر قال سفيان: «شهدت ثمانين موقفاً». أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٥.

(٤) طبقات ابن سعد، جـ ٥، ص ٤٩٨؛ قابل: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٩٣؛ تهذيب النووي، ص ٢٩٠؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٥.

(٥) خليفة بن خياط، جـ ٢، ص ٥٠٥؛ ابن الأثير في الكامل، جـ ٦، ص ٣٠١.

فهؤلاء بحسب رأي ابن كثير هم: «سادة العلماء في الحديث والفقه وأسماء الرجال»[1]. فرحلوا جميعاً وكأنهم كانوا على موعد مع القدر.

والذي يهمّنا في هذه الدراسة هو وفاة ابن عُيينة الذي كان لفقده ردّة فعل كبيرة ومؤلمة، تردّدت أصداؤها في أرجاء العالم الإسلامي، وقد عبّر أصحابه وطلابه عن أساهم العميق؛ ·مراثي مُحزِنة تجلّت من خلالها أهمية الرجل بين مُعاصِريه.

حدّث بعض مشايخ البصريين فقال: «حضرت جنازة سفيان بن عُيينة بمكة، وكان إبراهيم بن المُنَاذِر يقول فيها مرثية»[2] فكان فيما قال:

تجلو من الحكمة أنوارها
ما تشتهي الأنفس ألوانا
يا واحد الأمة في عملها
لقيت من ذي العرش رضوانا
راحوا بسفيان على نعشه
والعلم مكسوين أكفانا[3]

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ، جـ ١٠، ص ٢٤٤.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٤.
(٣) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٤.

وأضاف يحيىٰ البلخي متمّماً القصيدة وقد سمعها من ابن مناذر في المناسبة نفسها:

مَن كان يبكي ورعاً عالما
فليبكِ للإسلام سفيانا
لا يبعدنّك الله من هالك
أورثتنا غمّاً وأحزانا[1]

وأتممها الزبير بن بكّار عن لسان الشاعر نفسه فقال:

فقدك يا سفيان أنسانا
فَقْد الأخِلّاء وأسلانا[2]

وقال فيه الخُطَيم[3] مرثية يذكر فيها فضله وعلوّ كعبه في العلم وبالتالي تبجيل شيوخه وطلابه له؛ نظراً لبراعته في الرواية عن الأعلام. فقال:

سيري نَجاءً وَقاكِ اللَّهُ مِنْ عطبٍ
حتى تُلاقي بَعْدَ البيت سُفيانَا

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٤.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٤.
(٣) لم أعثر على ترجمة له في طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجُمَحي، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٩؛ وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري، وفي أعلام الزركلي.

شَيْـخ الأَنَـامِ ومَنْ حلَّت مَنـاقِبـهُ
لَاقى الـرجـال وحـاز العِلْم أزْمَـانـا
حَـوَى بيانـاً وفَهمَاً عَـاليـاً عَجَبـاً
إذَا يَـنُصُّ حَـدِيثـاً نَصَّ بُـرهَـانـا
تَـرَى الكُهُـولَ جَمِيعـاً عندَ مشهـده
مُـسْتَنصِـتينَ وشِيـخَـانـاً وشُبَّـانـا
يضُمُّ عَـمْـراً إلى الـزُّهـريُّ يُـسْنـده
وَبَعْـدَ عمـروٍ إلى الـزُّهـريِّ صَفْـوانـا
وَعَـبـدةً وعُـبَـيـدَ اللهِ ضَـمَّـهـمـا
وابن السَّبيعيِّ أيضـاً وابن جُـدْعَـانـا
فَـعَنْـهُمُ عَـنْ رسُـولِ اللَّهِ يُـوسِعُنـا
عِلمـاً وحُكماً وتـأويـلاً وتبيـانـا[1]

وانبـرى الأصمعي[2] يرثيـه بدوره، ويعـزّي فيه أصحـاب الحديث بعد أن تشتّت شملهم، وأصبحوا رعية من غير راعٍ ، وبلغ مصابهم ذروته بفقدهم آخر الرّواة عن الزهري وابن دينار. فقال:

---

(١) أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤٧٤.

(٢) هو عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي البصري؛ اللغوي الأخباري، كانت الخلفاء تحبّ منادمته، ولـه مصنفات عـديدة يعـالج فيهـا شتّى الاختصاصات، مات سنة ٨٢٨/٢١٣ أو سنة ٨٣١/٢١٦ (الفهرست، ص ٨٢ ـ ٨٣؛ شذرات الذهب، جـ٢، ص ٣٦ ـ ٣٧).

فَلْيَبْكِ سُفيانَ باغي سُنَّةٍ دَرَسَتْ
ومُستَبِيتٌ[1]. أثاراتٍ[2] وآثارِ[3]

ومُبْتَغي قُرْب إسنادٍ وموعظةٍ
وأَفَقِيُونَ[4] من طَارٍ ومن طارِ

أمْستْ مجالِسُه وَحْشَاً مُعَطَّلةً
من قاطِنين وحُجْاجٍ وعُمار

مَن للحديث عن الزُّهري حينَ ثَوَى
أو للأحاديثِ عَنْ عَمْرِو بن دينار

لو يَسمَعُوا بعده مَن قال حدّثنا الـ
ـزهريّ من أهل بَدوٍ أو بإحضارِ[5]

وَقَد أراهُ قريباً مِنْ ثلاثِ مِنَىً
قد خَفَّ مجْلِسَه مِنْ كلِّ أقطارِ

بنو المَحَابر والأقلام مُرْهَفَة
وسماسِمَاتٍ فَزَهَا كُلُّ نَجَّارِ[6]

---

(١) المستبيت: الفقير، والمراد به هنا الطالب.

(٢) أثارات: جمع أثارة، وهي البقية من العلم تؤثر.

(٣) آثار: جمع أثر، وهو الخبر.

(٤) أفَقِيون: جمع أُفُقي أو أَفَقِي، نسبة إلى الآفاق أو الأُفق.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ ٢، ص ١٣٥، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٣٠/١٣٤٨.

(٦) أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

لا يَهنأُ الشامِتَ المسرُورَ مَصْرَعُه
من مارقينَ ومِن جُحَّاد أقدار
ومِن زَنادِقةٍ، جَهْمٌ [1] يَقُودهم
قَوْداً إلى غَضَبِ الرحمنِ والنارِ
ومُلحِدين ومُرتابين قد خَلَطُوا
بسُنَّة الله أهتاراً[2] بأَهْتارِ[3]

وهكذا أُسدِلَ الستار على شخصية الإمام الفقيه سفيان بن عُيينة الذي ترك بين مُعاصريه وأبناء مجتمعه أجمل الأثر وأحلى الذكريات.

ب ـ تقويم ابن عُيينة من خلال تبجيل العلماء له:

بعد هذه الجولة مع محدّث الحرم المكّي؛ نخلص إلى تقويمه من خلال تبجيل العلماء له وأقوالهم فيه.

ولا ريب؛ أن ابن عُيينة كان من الأئمة الأعلام الذين خدموا بصدق وإخلاص حديث رسول الله (ﷺ) ونظراً لكفاءته في هذا العلم، وتفانيه في جمعه ونشره وشرح غوضامضه، فإن معاصريه قدّروا

---

(١) هو جهم بن صفوان صاحب الجهمية، وهو من الجبرية، ظهرت بدعته بترمذ وقتله سالم بن أحوز المازني بمرو في آخر حكم بني أمية.
(٢) جمه هِتر، وهو السَّقط.
(٣) عيون الأخبار، جـ ٢، ص ١٣٦.

له خدماته فخلّدوه بأقوال تُزَكّيه، وتميّزه بين المحدّثين وترفع من قدره عند الخاصّة والعامّة.

فهو شيخ الحجاز[1]، وشيخ الإسلام[2]؛ وإمام القوم[3]، بل هو وبحسب رأي صاحب حلية الأولياء، «الإمام الأمين، ذو العقل الرصين، والرأي الراجح الركين...»[4].

وهو بشهادة الشافعي يأتي بمصافّ مالك بن أنس فقال: «مالك وسفيان بن عُيينة القرينان - يعني في الأثر -»[5].

ويصرّح أحمد بن حنبل بأنه ما رأى مثله[6] وأيّده في ذلك بهز بن أسد فقال: «ما رأيت مثل ابن عُيينة»[7]. وأما سفيان الثّوري فيقول فيه ما يرفع من قدره ويعزّز من مكانته، خصوصاً وأن شهادة الثّوري لا مغمز فيها. قال عبد الله بن المبارك: سُئل سفيان الثوري عن سفيان بن عُيينة فقال: «ذاك أحد الأحدين، يقول ليس له

(١) الذهبي، دول الإسلام، ص ١٢٢.
(٢) الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٢٨١.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٠.
(٤) أبو نعيم الأصبهاني، جـ ٧، ص ٢٧٠.
(٥) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩.
(٦) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٣.
(٧) الذهبي، العِبَر في خبر مَن عبر، جـ ١، ص ٣٢٦؛ شذرات الذهب، جـ ١، ص ٣٥٤.

نظير»[1]. وفي رواية أخرى يقول: «زاد هداية، ما كـان أغربـه»[2].
وقال أبو غسان: «ما كان أكيسه»[3].

ويرى ابن شاهين، أن ابن عُيينة هو صاحب شرطة سفيان الثّوري أمير المؤمنين في الحديث[4]، في حين يرى أبـو حاتم الرازي أنه حجّة الله على المسلمين فقال: «الحجّة على المسلمين، مالك وشُعبة والثّوري وابن عُيينة»[5].

وأما بالنسبة لموقع ابن عُيينة بين إخوته؛ فثبت أنه كان المجلّي على الجميع. عن ذلك حدّث محمد بن عثمان بن أبي شيبة فقال: سمعت أبي يقول: «كنّا عند أبي نُعَيم، فذكرنا سفيان بن عُيينة، وعمران بن عُيينة، وإبراهيم بن عُيينة، فقال أبو نعيم: سفيان بن عُيينة الحنطة الراوردية، وسائر القوم شعير البط»[6].

وأخيراً يأتي رأي بشر بن المفضل الذي يجد في سفيان أفضل مَن على وجه الأرض، فسمع يقول: ومال بيده على الأرض ـ «ما بقي على وجه الأرض أحد يشبه سفيان بن عُيينة»[7].

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٣٣ وجـ ٤، ص ٢٢٦.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٠؛ أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٦٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٨٣.
(٤) ثقات ابن شاهين، ص ١٥٤.
(٥) تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١٢١.
(٦) ثقات ابن شاهين، ص ١٥٥.
(٧) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٠؛ تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٩.

وإذا كانت هذه الأقوال والمواقف تشكّل الجانب النظري لاحترام ابن عُيينة وتبجيله؛ فإن موقف حمّاد بن زيد ووكيع بن الجرّاح تشكّل الجانب العملي والشاهد الحيّ على مكانة الرجل بين مُعاصِرِيه. وإن كان في ذلك شيء من المبالغة.

قال شاهد عَيان: «رأيت حمّاد بن زيد قدّام سفيان بن عُيينة، كأنه صبي قدّام معلّمه»[1]. وقال محمد بن آدم المروزي: «ما رأيت وكيعاً عند ابن عُيينة قطّ إلّا جاثياً بين يديه على ركبتيه ساكتاً لا يتكلم»[2].

وخلاصة القول: يكفي سفيان فخراً أن هارون الرشيد خليفة بني العباس خلع عليه لقب: «سيّد الناس»[3].

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٨٢.
(٢) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٥٠.
(٣) تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٧٩.

خـــاتمة

من خلال هذه الدراسة المتواضعة، يـظهر لنـا أن الإمام سفيان بن عُيينة قد عايش علم الحديث ما يزيد على السبعة عقود، حيث أنه بدأ نشاطه العلمي وهو في العقد الثاني من عمره، وقد أثبت خلال عمله في هذا الاختصاص: على أنه جدير بتحمّل مسؤوليته، ألا وهي مهمة جَمْع الحديث من أصوله، وتتبّع ما غاب عن شيوخ مصره، عن طريق الرحلة إلى علماء الأمصار، ليأخذ عنهم الأحاديث الصحاح، حتى استحقّ عن كثب لقب «الغواص».

بعد ذلك؛ انتقل سفيان من دور الأخذ عن شيوخه؛ إلى دور العطاء لتلاميذه. فبدأ يعقـد حلقاتـه، ونشط في استقبال روّاده القادمين إليه من شتّى أنحاء العالم الإسلامي، حتى أصبح قِبلَة الباحثين عن الأحاديث الجياد، فكان البعض من طلاّبه يقصدون بلاد الحجاز ليس بدافع الحجّ، وإنما غايتهم الاجتماع به. والأكثر من ذلك فقد جاور عنده غير واحد من الحفّاظ.

وكلّ ذلك؛ يعزّز من قدر الرجل، الذي لقي أكثر من ثمانين رجلاً من أعلام التابعين، ثم علا شأنه في صناعته، حتى روى عنه

كبار شيوخه وأعداد كبيرة من أقرانه وتلاميذه، وقد ترقّت به الأحوال الفكرية حتى أصبح من حكماء أصحاب الحديث، وحمل عن جدارة لقب «الإمام الأمين» و«محدّث الحرم المكّي».

وبطبيعة الحال، إن إماماً بهذا المستوى ومحدّثاً بهذا القدر؛ كان لا بدّ أن تكون له فلسفة خاصّة به، أكان ذلك على الصعيد الفكري أو على الصعيد الاجتماعي، وقد ثبت لدينا هذا الأمر من خلال معالجة «نظرته إلى العلم» وتتبّعنا لمواقفه وأقواله التي تخصّ مجتمع عصره. وبرأيي المتواضع؛ إن تلك النظرة الواقعية التي عُرِفَ بها سفيان، فيها نوع من الديمومة لأنها تخصّ أيّ مجتمع من المجتمعات الراقية.

وإضافة إلى ذلك؛ فقد عُرِفَ ابن عُيينة بنشاطه الديني المتمثّل في تقواه، وعبادته المخلصة، وبالتالي دعوته الناس إلى جوهر الدين، بعد أن حدّد لهم الشروط الفُضلى للعبادة الحقّة والإيمان النقي.

وفوق هذا، فقد كانت لسفيان مواقف واضحة من قضيتي الزهد والورع اللذين كان عليهما السّلف الصالح، ثم زكّى هذه الأمور جميعها بعنايته بالقرآن الكريم، وبالتالي شغفه بالقيام بواجب الحجّ الذي سجّل فيه الرقم القياسي؛ بحيث بلغ عدد حججه ما يفوق على السبعين حجّة، وهذا قلّ ما سمعناه عن العلماء العاملين في زمانه.

فهذا غيض من فيض مما قام به ابن عُيينة من نشاطات في ميادين عديدة. غير أن هذا لا يعني أن المصادر كانت وفيّة للرجل، وأعطته حقّه من الاهتمام به وبتاريخه، وإنما لا بدّ أن تكون هناك أمور كثيرة بقيت مطويّة في عالم النسيان، أو في بطون الكتب التي لم أعثر عليها. على الرغم من عودتي لعدد كبير من المصادر الأصيلة، ولكن وفائي لأعلام الأمة يجعلني رهناً لأيّ مصدر لم أقع عليه، أو مخطوط يُغني هذه الدراسة. عندئذ سأعمد، وبعون الله، إلى تعديل هذا العمل وفق المعطيات الجديدة.

وبكل تواضع؛ هذا هو الكتاب الأول الذي يبحث في تاريخ سفيان بن عُيينة، الذي ظلّت أخباره متناثرة في المصادر الأصيلة التي لا يتسنى للقارىء غير المتخصّص أن يطّلع على مضامينها. فلعلّنا بهذا العمل نكون قد اختصرنا الطريق أمام الطموحين لمعرفة تاريخ أعلام الأمة من الفقهاء والمحدّثين.

ولا شكّ؛ بأن دراسة شخصية سفيان بن عُيينة وغيره من الأعلام من شأنها أن توجّه أنظار الدارسين إلى أهمية هذه الفئة الاجتماعية، وتساعد من جهة أخرى على فتح باب هذه الدراسات على مِصراعيه، مما يُتيح الفرصة لكشف النقاب عن العديد من رجالات الأمة الذين قاموا بدور لا يُستهان به في شتّى الميادين؛ الاجتماعية والفكرية والسياسية، وساهموا بالتالي في صناعة تاريخنا المجيد.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر:

* القرآن الكريم.

* ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن إدريس (ت ٩٣٨/٣٢٧).

١ ـ **كتاب الجرح والتعديل**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. صورة بالأوفست عن ط. دائرة المعارف العثمانية.

* ابن أبي الوفا، عبد القادر القرشي (١٣٧٣/٧٧٥).

١ ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، ط ١، حيدر آباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٢ (وفي آخره ذيل الجواهر المضية).

* ابن الأثير، عزّ الدين علي بن محمد (١٢٣٢/٦٣٠).

١ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ط. مصر، ١٢٨٥ هـ.

٢ ـ **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر، ١٤٠٢/١٩٨٢.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧/١٢٠٠).
١ ـ **صفة الصفوة**، بعناية إبراهيم رمضان وسعيد اللحّام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/١٩٨٩.

* ابن حبّان البستي، أبو حاتم محمد (٣٥٤/٩٦٥).
١ ـ **كتاب مشاهير علماء الأمصار**، بعناية فلايشهمر، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/١٩٥٩.

* ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢/١٤٤٩).
١ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، ط. مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٨ هـ.
٢ ـ **تقريب التهذيب**، بعناية محمد عوامة، حلب: دار الرشيد، ١٤٠٦/١٩٨٦.
٣ ـ **تهذيب التهذيب**، حيدر آباد: الدكن. مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.
٤ ـ **لسان الميزان**، ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦/١٩٨٦.

* ابن حنبل، أحمد بن محمد (٢٤١/٨٥٥).
١ ـ **كتاب الورع**، دون دار نشر، دون تاريخ.
٢ ـ **المسند**.

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨/١٤٠٦).
١ ـ **المقدمة**، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.

* ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد (١٢٨٢/٦٨١).
١ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، د.ت.

* ابن سعد، محمد بن منيع (٨٤٥/٢٣١).
١ ـ **كتاب الطبقات الكبرى**، بيروت: دار صادر، د.ت.

* ابن سلّام الجمحي، محمد (٨٤٥/٢٣١).
١ ـ **طبقات الشعراء**، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٩.

* ابن شاهين، عمر بن أحمد (٩٩٥/٣٨٥).
١ ـ **تاريخ أسماء الثقات ممّن نقل عنهم العلم**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦/١٤٠٦.

* ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (١٣٠٩/٧٠٩).
١ ـ **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، بيروت: دار صادر، د.ت.

* ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (٩٣٩/٣٢٧).
١ ـ **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين والزين والأنباري، القاهرة: ١٩٥٦.

* ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (١٦٧٩/١٠٨٩).
١ ـ **شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب**، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩/١٣٩٩.

* ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦/٨٨٩).
١ ـ **الإمامة والسياسة**، القاهرة: ١٣٢٧/١٩٠٩.
٢ ـ **الشعر والشعراء**، ط ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.
٣ ـ **عيون الأخبار**، ط١، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨/١٩٣٠.
٤ ـ **كتاب المعارف**، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٧/١٩٨٧.

* ابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد (٦٢٠/١٢٢٣).
١ ـ **كتاب التوّابين**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧.

* ابن قنفذ القسنطيني، أحمد بن حسن بن الخطيب (٨٠٩/١٤٠٧).
١ ـ **كتاب الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، ط ٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨.

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤/١٣٧٣).
١ ـ **اختصار علوم الحديث**، وبهامشة شرحه المسمّى «الباعث الحثيث»، لأحمد محمد شاكر، ط ٢، القاهرة: ١٣٧٠/١٩٥١.
٢ ـ **البداية والنهاية في التاريخ**، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠١/١٩٨١.

* ابن ماجه، محمد بن يزيد (٨٨٨/٢٧٥).
١ ـ **كتاب السُّنن**، تحقيق محمد وعبد الباقي، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت..

* ابن معين، يحيىٰ (٨٤٧/٢٣٣).
١ ـ **تاريخ يحيىٰ بن معين**، تحقيق عبد الله حسن، بيروت: دار القلم، د.ت.

* ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم (١٣١٢/٧١١).
١ ـ **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، دار بيروت، د.ت..

* ابن النديم، محمد بن إسحاق (٩٩٥/٣٨٥).
١ ـ **كتاب الفهرست**، بيروت: دار المعرفة، د.ت..

* ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (٨٣٣/٢١٨).
١ ـ **السيرة النبوية**، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، بيروت: دار التراث العربي. د.ت..

* ابن يزيد، أبو عبد الله محمد (٨٨٦/٢٧٣).
١ ـ **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد الحافظ، ط ٢، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦/١٤٠٦.

* أبو داود، سليمان بن الأشعث (٨٨٨/٢٧٥).
١ ـ **كتاب السُّنن**، تحقيق محمد محيـي الدين عبد الحميد، ط ٢، القاهرة، ١٣٩٩ هـ.

* أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (١٠٣٩/٤٣٠).
١ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٠/١٤٠٠.

* الأربلي، عبد الرحمن سنبط (١٣١٧/٧١٧).
١ ـ **خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك**، القدس: مطبعة مارجيوس، ١٨٨٥.
* الأزرقي، أبو الوليد محمد. (القرن الرابع هـ/ العاشر م).
١ ـ **كتاب أخبار مكّة شرّفها الله، وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق وستنفلد، ليبزغ: ١٨٥٨، وطبعة مكّة: دار الثقافة، د.ت.
* الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٩٦٧/٣٥٦).
١ ـ **مقاتل الطالبيين**، تحقيق السيد أحمد صقر، بيروت؛ مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٨/١٩٨٧.
* البخاري، محمد بن إسماعيل (٨٦٩/٢٥٦).
١ ـ **كتاب التاريخ الكبير**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
٢ ـ **صحيح البخاري في (شرح فتح الباري)**، القاهرة: بولاق، ١٣٠١ هـ. وطبعة بيروت: دار الجيل، د.ت..
* البلاذري، أحمد بن يحيىٰ بن جابر (٨٩٢/٢٧٩).
١ ـ **أنساب الأشراف**، تحقيق غواتن، ج ٥، القدس، ١٩٣٦.
٢ ـ **فتوح البلدان**، بعناية رضوان رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨/١٩٧٨.
* الجزري، أبو الخير محمد (١٤٣٠/٨٣٣).
١ ـ **غاية النهاية في طبقات القرّاء**، بعناية ج. برجستراسر، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.

* الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/١٠٧١).
١ ـ **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت..
٢ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، صورة عن مخطوط البلدية بالإسكندرية (برقم ٣٧١١ ج).
٣ ـ **الكفاية في علم الرواية**، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ هـ.

* الخزرجي، صفيّ الدين، أحمد بن عبد الله (٩٢٣/١٥١٧).
١ ـ **خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢.

* خليفة بن خياط، أبو عمرو الملقب شباب العصفري (٢٤٠/٨٥٥).
١ ـ **كتاب التاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف: مطبعة الآداب، ١٣٨٦/١٩٦٧.

* الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢/٨٩٥).
١ ـ **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيّال، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨/١٣٤٨).
١ ـ **تذكرة الحفّاظ**، بيروت: دار الكتب العلمية، صورة بالأوفست عن طبعة حيدر آباد، ١٣٧٥/١٩٥٥.
٢ ـ **دول الإسلام**، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٥/١٩٨٥.

٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، مجموعة من المحقّقين، بإشراف شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٦/١٩٨٦.
٤ ـ **العِبَر في خبر مَن عَبَر**، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيّد، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.
٥ ـ **المغني في الضعفاء**، تحقيق نور الدين عتر، د.ت.
٦ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١/١٥٠٥).
١ ـ **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد عبد الحميد، ط ١، القاهرة: ١٣٧١/١٩٥٢.
٢ ـ **تدريب الراوي**، شرح «تقريب» النووي، مصر، ١٣٠٧.
٣ ـ **طبقات الحفّاظ**، بيروت: دار الكتب العلميه، ١٤٠٣/١٩٨٣.

* الشعراني، عبد الوهاب (٩٧٣/١٥٦٥).
١ ـ **الطبقات الكبرى**، المسمى «واقع الأنوار في طبقات الأخيار»، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.

* الشيرازي، أبو إسحاق (٤٧٦/١٠٨٣).
١ ـ **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.

* الصفدي، خليل بن أيبك (٧٦٤/١٣٦٣).

١٠ ـ **الوافي بالوفيات**، جـ ١٥، باعتناء بيرندرانكة، فيسبادن: مرانزشتايز، ١٩٨٣/١٣٩٥.

* الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير الحسني (١٧٦٨/١١٨٢).

١ ـ **توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١، القاهرة، ١٣٦٦ هـ.

* الطبري، محمد بن جرير (٩٢٣/٣١٠).

١ ـ **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٣/١٤٠٣.

* العجلي، أحمد بن عبد الله بن صالح (٨٧٤/٢٦١).

١ ـ **تاريخ الثقات**، باعتناء عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤/١٤٠٥.

* الفاسي، محمد بن أحمد الحسيني المكّي (١٤٢٨/٨٣٢).

١ ـ **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ط. عيسى البابي الحلبي.

* الفسوي، يعقوب بن سفيان (٨٩٠/٢٧٧).

١ ـ **كتاب المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٤/١٣٩٤.

* المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (٨٩٨/٢٨٥).

١ ـ **كتاب الكامل في اللغة والأدب**، بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.

* المتّقي الهندي، علي المتّقي بن حسام الدين الهندي (١٥٦٧/٩٧٥).

١ ـ **كنز العمّال في سُنن الأقوال والأفعال**، صحّحه صفوة السقا، ط ٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥/١٤٠٥.

* مجهول. . .

١ ـ **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم، تحقيق (de Goije)، ط بريل، ١٨٧١.

* المسعودي، علي بن الحسين (٣٤٦/٩٥٧).

١ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣.

* مسلم، بن الحجّاج النيسابوري (٢٦١/٨٧٤).

١ ـ **صحيح مسلم**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

* المناوي، عبد الرؤوف (١٠٣١/١٦٢٢).

١ ـ **الكواكب الدرّيّة في تراجم السادة الصوفية**، باعتناء محمود حسن ربيع، القاهرة: مطبعة الأنوار ١٩٧٨/١٣٥٧.

* النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف (٦٧٦/١٢٧٧).

١ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، تحقيق فرديناند وستنفلد، غوتينغن، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٧.

* اليافعي اليمني، عفيف الدين، عبد الله بن أسعد (٧٦٨/١٣٦٧).

١ ـ **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان**، تحقيق عبد الله الجُبُوري، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤.

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦/١٢٢٩).
١ ـ **معجم البلدان**، بيروت: دار بيروت ـ صادر ١٩٥٥ ـ ٥٧.

* اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن واضح (٢٨٤/٨٩٧).
١ ـ **تاريخ اليعقوبي**، بيروت: دار صادر ١٣٧٩/١٩٦٠.

ثانياً ـ المراجع:

أ ـ المراجع العربية:

* الحاجّ علي، عصام.
١ ـ **الإمام سفيان بن سعيد الثوري «سيّد الحفّاظ»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢/١٩٩٢.
٢ ـ **الإمام شُعبة بن الحجّاج الأزدي «سيّد المحدّثين»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣/١٩٩٣.
٣ ـ **الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١/١٩٩٠.

* الزركلي، خير الدين.
١ ـ **كتاب الأعلام**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

* السباعي، أحمد.
١ ـ تاريخ مكّة، ط ٤، مكّة: دار مكة للطباعـة والنشر، ١٣٩٩/١٩٧٩.
* عمر، فاروق.
١ ـ طبيعة الدعوة العباسية، ط ١، بيروت: دار الأندلس، ١٣٨٩/١٩٧٠.
* الكتاني، محمد بن جعفر (ت ١٣٤٥/١٩٢٦).
١ ـ الرسالة المستطرفة لبيان كتب السُّنّة المشرّفة، بعناية محمد الكتاني، دمشق: دار الفكر، ١٣٨٣/١٩٦٤.
* ماجد، عبد المنعم.
١ ـ التاريخ السياسي للدولة العربية، ط ٣، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦.

ب ـ القواميـــس:

* بطرس البستاني.
١ ـ محيط المحيط، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٣.

جـ ـ المراجع الأجنبية:

1 - Encyclopêdie de l'Islam.

الفهـــرس

الفصل الثالث
ابن عُيينة، وقدراته العلمية

الفصل الرابع
سفيان بن عُيينة، ونشاطه الديني

الفصل الخامس
أواخر نشاطات ابن عُيينة ونهايته